الفصل الثانى

الصنعة فى النثر الإسلامى

١

الإسلام

يفتح الإسلام صفحة جديدة فى تاريخ النثر العربى ، هى صفحة دين قويم بُعث به رسول عظيم ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وينقل العرب وغير العرب من حياة الفوضى والهمجية والخرافة والوثنية والعداوة والبغضاء إلى حياة مدنية ، قوامُها سعادة الجنس البشرى وهناءته .

ولا يمضى نحوُ عشرين سنة حتى يجمع محمد صلى الله عليه وسلم العربَ على هذا الدين الحنيف ويستأصل ما كان فيهم من جذور همجية ووثنية وتفكك وتخاصم ، فيصبحوا بنعمة الله أمة واحدة تتعاون على الخير والبر والتقوى ، ويخرُّوا إلى الأذقان سُجَّداً خشوعاً لربهم ورهبة من عقابه ورغبة فى رحمته التى وسعت كلَّ شىء .

لم يعد العربُ قبائل متنابذة ، كما كانوا فى الجاهلية ، يقتل بعضهم بعضاً معظِّمين للدماء مفاخرين بالأحساب والأنساب ، بل أصبحوا جماعة واحدة رُحَمَاء فيما بينهم ، يسند قويُّهم ضعيفهم ، لا يتحاربون ولا يتخاصمون ، بل يتآزرون ويتعاونون ، فلا نهب ولا سلب ، ولا عصبية قبلية ولا دعوة جنسية ، فالمسلمون جميعاً من كل القبائل ومن عرب وغير عرب إخوة لا فضل لغنى على فقير ولا لقوى على ضعيف ، بل هم جميعاً سواء ، ولا شريف ولا مشروف ، ولا حر ولا عبد . كل منهم يرعى أخاه وحقوقه ، وله حريته ، ولكن بحيث لا تمس حرية الآخرين ، فقد حدد الإسلام هذه الحرية بتكاليفه الدينية بما حرَّم من ضروب الإثم ما ظهر منها وما بَطن .

إنه دين سماوى ، تَعْنُو فيه الوجوهُ للحىِّ القيُّوم الذى خلق السموات والأرض وما بينهما ، وسَخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجرى إلى أجل مسمى ، ومدَّ الأرض وجعل فيها رَواسىَ وأنهاراً ومن كلِّ الثمرات ، فهو باعث كل حياة . قد أحاطت قدرته كما أحاط علمه بكل شىء ، فهو القاهر فوق عباده (وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحَبَّة فى ظلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابس إلا فى كتاب مبين) . وإنه ليعلم خائنةَ الأعين وما تُخفى الصدور ، وقد أعذر رسولُه الكريم وأنذر ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، فإن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسَب فيها المرء على ما قدَّمتْ يداه ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره ، فإما الجنة والنعيم وإما النار والجحيم . والله مع سلطانه وعدله رحيم ، وعلى المسلم أن يصدع بأوامره ونواهيه فى سره وعلنه ، وأن يسير على هَدْى نبيه وما شرعه للناس ، وأن يأخذ بتعاليمه ووصاياه التى تحقق له السعادة فى دنياه وأخراه .

وفى هذا الدين الكريم عقائد تتصل بوحدانية الله والإيمان برسله وكتُبه واليوم الآخر ، وأن وراء عالمنا نوعين من الأرواح ، نوعاً خيِّراً هو الملائكة ، ونوعاً شريراً هو الشياطين . وفى الدين أعمال تتصل بعبادة الله وطاعته ، هى الصوم والصلاة والزكاة وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، وإنه ليدعو من آمن به إلى سيرة مستقيمة فلا بغى ولا عدوان ولا فحش ، ولا قتل ولا نهب ، ولا نميمة ولا غيبة ولا كبر ولا فخر ، بل حياة طاهرة نقية ، خلصت من كل الشوائب ، وهى حياة وضع لها الدينُ نظاماً اجتماعيًّا سديداً يكفل للجنس البشرى ما يليق به من كمال . إنها رسالة جليلة ، رسالة لم يؤدها أى دين من الأديان على هذه الصورة المثالية ، ومن ثَمَّ لم تؤثر فى العرب وحدهم ، بل أثرت فى العالم جميعه ، ودانت لها الأمم فى مشارق الأرض ومغاربها مقرة بجلالها وجمالها .

القرآن الكريم

كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلْفه ، تنزيلٌ من حكيم حميد ، نزل به الرُّوح الأمين على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم منجَّماً مقسَّطاً فى ثلاث وعشرين سنة ، حتى تستعد القوى البشريةُ لتلقى هذا الفَيْض الإلهى ، وهو معجزة الإسلام الكبرى ، إذ لم يبلغ أى كتاب دينى أو دنيوى ما بلغه من روعة البيان والبلاغة ومَسّ المشاعر وأسْرِ القلوب ، سواء حين يتحدث عن عظمة الله وجلاله أو حين يشرِّع للناس ما به صلاحُ معاشهم وآخرتهم أو يصور لهم الثواب والعقاب والفردوس والجحيم ، أو يقص عليهم من أنباء الرسل والأولين ما فيه عبرة ومُزْدَجَرٌ للمؤمنين .

فقد نزل فى أسلوب لا يبارَى فى قوة إقناعه وبلاغة تركيبه ، حتى ليقول الوليد بن المغيرة أحدُ خصوم الرسول وقد سمعه يتلو من آياته : « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ، ما هو من كلام الإنس والجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطُلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمُغْدِق »[1] ويلاحظ الوليد ملاحظة صادقة ، هى أن القرآن لا يماثل كلام الإنس ولا كلام الجن الذى كان يجرى على ألسنة كهانهم ، فهو طراز وحده ، له سحره البيانى ، بل له إعجازه الذى انقطعت آمالُ العرب دونه فى محاكاته أو الإتيان بشىء على مثاله فى السيطرة على الألباب والقلوب . وقد تحدَّاهم جل وعز أن يجمعوا أمرهم وكَيْدهم فيأتوا بسورة من مِثْله أو بسور تحاكيه ، فعجزوا وذلوا ، يقول سبحانه : (قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ويقول تبارك وتعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادْعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) . ويشرح ذلك الجاحظ فيقول :

« بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام فى زمن أكثر ما كانت العربُ

---

(١) انظر تفسير الزمخشرى فى سورة المدثر ،
ومغدق : كثير المياه .

فيه شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عُدَّة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، دعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر وأزال الشبهة ، وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحميَّة دون الجهل والحَيْرة نصبوا له الحرب ونصب لهم . . وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباح مساء إلى معارضته إن كان كاذباً بسورة واحدة أو بآيات يسيرة . فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقريعاً لهم بعجزهم عنها قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، قال : فهاتوا ولو مفتريات ، فلم يَرُمْ ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر . ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوُجد من يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وناقض . فدلَّ ذلك العاقلَ على عجز القوم مع كثرة كلامهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض الشعراءَ من أصحابه والخطباءَ من أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله وأبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق أتباعه عن بذل النفوس والخروج عن الأوطان وإنفاق الأموال. وهذا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والفضل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصائد الموجزة ، ولهم الأسجاع واللفظ المنثور . ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم ، فمحال — أرشدك الله — أن يجتمع هؤلاء كلهم فى الأمر الظاهر والخطاب المكشوف البين مع التقريع بالتقصير والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد أعمالهم وقد احتاجوا إليه ، والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة كذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل وهم يبذلون أكثر منه » .

وكان طبيعيًّا أن يستكين العرب أمام هذه الذروة الرفيعة من البلاغة والبيان ، وهى ذروة ليس لها فى اللغة العربية سابقة ولا لاحقة ، ذروة جعلت العرب

حين يستمعون إلى آيه تعنو وجوههم لربهم ويخرون رُكَّعاً وسُجَّداً مشدوهين بجماله مبهورين ببلاغته، وفى ذلك يقول جل وعز : (الله نَزَّلَ أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مَثانىَ تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ويقول: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) . ولا يزال هذا الشعور الذى كان يختلج فى قلوب العرب الأولين تخفق به القلوب فى كل عصر لما يفتح من آفاق العالم العلوى ، ولما يؤثر به فى صميم الوجدان الروحى . وهو يمتاز بأسلوب خاص به ليس شعراً ولا نثراً مسجوعاً ، وإنما هو نظم بديع ، فُصِّلت آياته بفواصل تنتهى بها وتطمئن النفس إلى الوقوف عندها . وتتنوع الفواصل بين طوال وقصار ومتوسطة بتنوع موضوعاته وتنوع المخاطبين ، فقد كان يغلب عليه الإيجاز والإشارة فى بدء الدعوة قبل الهجرة ، حين كان يدعو إلى عبادة الله ونبذ الديانة الوثنية ، والإيمان بالبعث والنشور ، فلما انتقل الرسول عليه السلام إلى المدينة غلب عليه البسط والإطناب لبيان نُظم الشريعة وما ينبغى أن يكون عليه نظام الحياة الاجتماعية ، مما تقتضيه مصالح البشر فى حياتهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة .

وقد أثَّر هذا الكتابُ العظيم آثاراً بعيدة فى اللغة العربية ، فقد حوَّل أدبها من قصائد فى الغزل والحماسة والأخذ بالثأر والفخر ووصف الإبل والخيل والسيوف والرماح ، ومن حكم متناثرة لا ضابط لها ولا نظام ، إلى أدب عالى يخوض فى مشاكل الحياة والجماعة ، وينظِّم أمورها الدينية والدنيوية . فارتقى الأدب العربى رقيًّا لم يكن يحلم به العرب ، واتسعت آفاقه . وعادة يشير مؤرخو هذا الأدب إلى بعض ألفاظه التى ابتدأها ابتداء مثل القرآن والفرقان والكافر والمشرك والمنافق والصوم والصلاة والزكاة ، فمدلولات هذه الألفاظ لم تكن حتى كان ، والحق أنه جميعه بألفاظه ومعانيه المختلفة يُعَدُّ ابتداء ، بما علَّم العرب من أسس الإسلام ومبادئه وبما بيَّن لهم من ماهية الحياة بعد الموت ومن البعث والنشور ورسالة الرسل وعبادة الله الواحد الأحد ، وبما نظم لهم من حياتهم فى الأسرة والجماعة تنظيما ماديًّا وأدبيًّا وعقليًّا وروحيًّا ، تنظيما يكفل لهم الكمال

البشرى والسعادة فى الدارين. وعلى نحو ما جمع العرب على دين واحد جمعهم على لهجة واحدة من لهجات اللغة العربية ، هى لهجة قريش ، وكانت قد سادت فى الجاهلية على لهجات القبائل العدنانية الشمالية ، فأتمّ لها هذه السيادة على لهجات القبائل اليمنية الجنوبية وكانت هى التى حملها العرب معهم فى فتوحاتهم ، فانتشرت فى العالم الإسلامى جميعه من الصين والهند إلى المحيط الأطلسى وجبال البرانس ، إذ كانت تلاوته فَرْضاً مكتوباً على المسلمين ، قال جل شأنه : (ورَتِّل القرآن ترتيلا) وقال : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضَنْكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رَبِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتَها وكذلك اليوم تُنْسَى) وبذلك كان للقرآن الكريم الفضلُ العظيم فى حفظ اللغة العربية وذيوعها وانتشارها فى ملايين الناس مدى أجيال متعاقبة بل مدى قرون مترادفة إلى اليوم .

فالقرآن هو الذى حفظ اللغة العربية القرونَ المتطاولة السابقة ، وقد حوّل العربىّ من إنسان جاهل يؤمن بالخرافات إلى إنسان محب للعلم مشغوف بالمعرفة ، يطلبها أينما كانت ، ولم يلبث أن فتح له الأرض ، فدخلت إلى العربية أمم شاركت فى لسانها وأدبها ، وتعاونتْ فى تلك النهضة الروحية والاجتماعية والأدبية والعلمية . ومن الحق أن كل ما كسبته لغتنا من آداب فى الشعر والنثر ومن علوم شرعية ولسانية وعقلية فلسفية ، إنما كان بفضل القرآن ، بل لقد تعدت آثاره لغته العربية إلى لغات الأمم الإسلامية التى لا تنطق بلغته . ولنتصور العرب لم يُرْسَلْ إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نَزل فيهم الذكر الحكيم إذن لما فارقت لغتهم جزيرتهم ولظلوا وثنيين فى تنابذ وشقاق وحروب طاحنة ، بل لعل لغتهم كانت قد اندثرت كما اندثرت لغات قديمة كثيرة ، فالقرآن هو الذى نفخ فى روحها ، وهو الذى أتاح لها الحياة على توالى القرون ، وهو الذى نقلها من لغة بداوة إلى لغة مدنية ، حتى أصبحت لغة عالمية لأمم كثيرة اتخذتها لسان ثقافتها وآدابها . ولا يوجد فى تاريخ البشرية كتاب له هذه الآثار العظيمة فى لغته وتغيير أحوال من آمنوا به ، بل هو يقف وحده فى هذا الباب ، إنه مفخرة العرب ومعجزة الإسلام وآيته الباهرة .

الحديث النبوى

حديث الرسول صلوات الله عليه هو الأصلُ الثانى للإسلام ، وهو يشمل كل ما جاء عنه من قول أو فعل أو تقرير ، وقد يسمَّى ذلك السنة . وترجع أهميته إلى أنه يتمم القرآن فى بيان أحكام الشريعة الإسلامية ، فالصلاة مثلا ذُكرت فى القرآن مجملة ، فبيَّن الحديث كيفيتها وأوقاتها ، وكذلك الشأن فى الزكاة فإن الحديث هو الذى بين قواعدها التى يجب اتباعها فى جَمْعها وتوزيعها . وهناك آيات فى الذكر الحكيم يحتمل وجوهاً مختلفة من المعانى ، والحديث هو الذى يشرح المرادَ منها . وهذا إلى كثير من شئون الدين التى يستقل الحديث ببيانها .

ومنذ عصر الرسول يهتم المسلمون بالحديث عملا بقوله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنة) فكانوا يأتمُّون به كما كانوا يأتمون بالقرآن الكريم وما شرَع لهم . ويدل على ذلك أكبر الدلالة ما يُرْوَى من أن الرسول حين أرسل مُعاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ، قال : بسنة رسوله[1] . فرواية الحديث كانت معروفة فى حياة الرسول ، وكانت كل قبيلة تأخذ معها معلماً يعلمها القرآن والسنة النبوية . وكثيراً ما كان يعقّب الرسول على أحاديثه وخطبه بقوله : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب »[2] . ولما توفى الرسول ، ودخل الموالى فى الإسلام أخذوا يحاولون معرفة كل شأن من شئون الرسول ، ليقتدوا به ، ولم يكن العرب يقلُّون عنهم شغفاً بتلك السيرة العاطرة .

كل ذلك دفع المسلمين إلى رواية الحديث ، غير أنه لم يدوَّن بصفة عامة إلا على رأس المائة الأولى للهجرة ، أما قبل ذلك فكان هناك من يدونونه ومن لا يدونونه . وتُرْوَى عن الرسول أحاديث مختلفة يدعو بعضها إلى تدوينه ،

---

(١) انظر مختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (الطبعة الأولى) ص ١٢٦ .

(٢) راجع مثلا خطبة حجة الوداع فى البيان والتبيين ٢/٣٣ .

ويدعو بعض آخر إلى عدم تدوينه[١] ، ولعله كان يخشى إن دُوِّنَ أن يختلط بالقرآن أو أن يشغل المسلمين عنه . وفى الوقت نفسه لم يجد مانعاً فى بعض الأحيان من أن تكتب عنه بعض الأحاديث التى تتعلق بالأحكام . وإذا انتقلنا إلى عصر الصحابة وجدناهم يكرهون غالباً تدوين الحديث[٢] . بينما يعنون بروايته ، وأشار نفر منهم على عمر أن يدوّنه ، فلبث شهراً يستخير الله فى ذلك ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : إنى كنت قد ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت ، فإذا أناس من أهل الكتاب قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء أبداً [٣] ومضى الصحابة لا يدونون الحديث تدويناً عاماً مكتفين بروايته ، وظلت هذه هى الفكرة الشائعة فى عصر التابعين[٤] ، ولكن بمضى الزمن تزداد الرغبة فى تدوينه ، حتى إذا كان عهد عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى للهجرة رأيناه يأمر بتدوينه[٥] ، ولا مشاحة فى أن أول من دونه تدويناً عاماً هو ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٣ هـ ومنذ هذا التاريخ أخذ تدوين الحديث يتسع ، وأخذ يصنَّف ويبوَّب على الأحكام الفقهية ، حتى يسهل الرجوع إليه فى أمور الدين ، على نحو ما نجد فى كتاب « الموطأ » للإمام مالك إمام أهل المدينة المتوفى سنة ١٧٩ للهجرة ولا نصل إلى أواسط القرن الثالث حتى يضع فيه ابن حنبل مسنده الكبير ، وتتلوه كتب الصحيح الستة ، للبخارى ومسلم وأبى داود والترمذى وابن ماجة والنسائى .

ووُضع حول الحديث منذ العصر الأول فى روايته سياج محكم ، حتى لا يدخل فيه الوضع والانتحال ، وحتى تظل الثقة قائمة به ، وخاصة لأنه

---

(١) انظر تقييد العلم للخطيب البغدادى (طبعة يوسف العش) ص ٢٩ وما بعدها و ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ص ٣٦ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٤٩ وما بعدها .

(٤) نفس المصدر ص ٤٥ وما بعدها و ص ٩٩ وما بعدها .

(٥) الزرقانى على موطأ مالك (طبع المطبعة الخيرية) ١/١٠ .

تأخر تدوينه تدويناً عامًّا . وقد كُفل له من ذلك ما يملؤنا إعجاباً بعلمائه ورواته ، فقد اشترطوا شروطاً كثيرة فى حملته ، وأقاموا من أجله علماً برأسه ، يسمى مصطلح الحديث ميزوا فيه بين أنواع صحيحه وضعيفه ، كما ألفوا كثيراً فى رجاله ورواته ، حتى يقفوا على درجة صدقهم . وقد أفردوا لضعيفه كما أفردوا لصحيحه مؤلفات كثيرة على نحو ما صنع ابن حبان وغيره ، وكذلك أفردوا مؤلفات لموضوعاته ومفتريات على نحو ما صنع السيوطى فى كتابه (اللآلئ المصنوعة) .

وبذلك حافظ المسلمون على حديث الرسول صلوات الله عليه ، وإن كانوا قد أجمعوا على أنه فى جملته رُوِىَ بالمعنى ولم يرو باللفظ ، بسبب تأخر تدوينه ، ولعل ذلك ما جعل علماء الكوفة والبصرة وبغداد لا يحتجون به فى إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد النحوية واللغوية التى دونوها ، فقد تداوله الأعاجم والمولدون قبل تدوينه تدويناً عامًّا .

والذى لا شك فيه أنه عليه السلام لم يكن ينطق إلا عن ميراث حكمة ، وأنه أوتى جوامع الكلم ، وكان يكره الإغراب فى اللفظ والتعسف والتكلف ، ويكفى فى بيان روعة تعبيره وبلاغة كلامه وتراكيبه ما يقوله الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين من أنه « لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيد بالتأييد ويُسِّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشَّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حُسْن الإفهام وقلة عدد الكلام . . لم تسقط له كلمة ولا ذلَّت به قَدَمٌ ولا بارتْ له حجة ، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب ، بل يَبُذُّ الخطب الطوال بالكلم القصار . . ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفَلْج[1] إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين فى فحوى من كلامه

---

(١) الفلج : الفوز والظفر .

صلى الله عليه وسلم »[١] . وقد تداول العرب والمسلمون من كلماته الجامعة بعض أمثال لم يتقدمه فيها أحد ، من ذلك قوله [٢] :

مات حتْف أنفه[٣] — كل الصيد فى جوف الفَرا[٤] — إذن لا ينتطح فيها عنْزَان — يا خيل الله اركبى — لا يُلْسَعُ المؤمن من جُحْر مرتين — هُدْنه على دَخَن[٥] وجماعة على أقذاء — الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة[٦] — إن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى[٧] — إياكم وخضراءَ الدِّمن[٨] — الآن حَمِيَ الوطيس[٩] .

على أنه ينبغى أن نعرف أن الأمثال لم يعد لها منذ ظهور الإسلام خطورتها فى تاريخ النثر العربى ، فقد تغيرت الحياة العربية من قواعدها ، ولم تعد تحتكرها الأمثال ، إذ أخذ العرب يُشْغَلُون عنها بتلاوة القرآن ورواية الحديث ، واتخذوا منهما عبرتهم وموعظتهم ، وحتى الشعر كفَّ كثيرون من شعرائهم عن نظمه [١٠] .

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٧ .
(٢) نفس المصدر ٢/١٥ وما بعدها والحيوان ١/٣٣٥ وزهر الآداب للحصرى (طبعة المطبعة الرحمانية) ١/٢٣ ومجمع الأمثال للميدانى ١/٧ ، ١/٢١ .
(٣) مات حتف أنفه : أى على فراشه من غير قتل فى الوغى .
(٤) الفرا : حمار الوحش ، يضرب مثلا فى نفاسة الشىء أو الشخص .
(٥) دخن : حقد .
(٦) الراحلة : الصالحة لأن ترحل .
(٧) المنبت : المسرع بناقته حتى عطبت قلم يقض حاجته ولا سفره . والظهر : الناقة التى يركبها .
(٨) الدمن : البعر المتلبد . وهو مثل يضرب تنفيراً من المرأة الحسناء تنشأ فى منبت السوء .
(٩) الوطيس : التنور ، يضرب مثلا على اشتداد الحرب .
(١٠) أغانى (طبعة الساسى) ١٤/٩٤ .

٢

الخطابة فى صدر الإسلام

الرسول صلى الله عليه وسلم أخطبُ العرب قاطبة ، وقد كان يخطب فى قريش كثيراً يدعوها إلى دينه الحنيف[١] والدخول فى طاعة الله ومحبته ، ولما هاجر إلى المدينة أصبحت الخطابة فريضة مكتوبة فى صلاة الجمعة والعيدين . وبذلك عرف العرب ضرباً منظماً من الخطابة الدينية لم يكونوا يعرفونه فى الجاهلية ، إذ كانت خطابتهم — كما أسلفنا — اجتماعية ، وكانت تدور غالباً على المنافرات والمفاخرات ، وقد دعا الإسلام إلى نبذ التفاخر والتكاثر بالأحساب والأنساب ، ومن ثَمَّ اختفى من حياتهم هذا اللون من الخطابة

وتحتفظ كتب الحديث الصحيحة[٢] بتقاليد الرسول صلوات الله عليه فى خطابته سواء فى صلاة الجمعة أو صلاة العيدين ، إذ كان يخطب فى الصلاتين خطبتين يجلس بينهما ، وكانتا تدوران على تبيين ما شرع الله لعباده فى شئون دينهم ودنياهم وما ينبغى أن يسود مجتمعهم من مثالية خلقية رفيعة ومن روابط اجتماعية وثيقة . وبجانب ذلك كان الرسول يخطب فى الأحداث وعند المناسبات . ومن المحقق أنه خلّف تراثاً ضخماً من الخطب ، غير أن ما احتفظت به كتب الأدب والتاريخ من ذلك قليل ، ولا ترجع قلته إلى قِصَر خطبه ، فقد كان يطيل خطبه أحياناً وفى بعض المناسبات إلى ساعات[٣] يعظ الناس ويدعوهم إلى التفكر فى الكون وخالقه ومدبره . وأكبرُ الظن أن خطبه أصابها ما أصاب خطب الجاهلية ، فإنها لم تدوَّن لحينها ، وبَعُد العهد بين عصرها وعصر تدوينها . ومع ذلك فقد احتفظت ذاكرة الرواة ببقايا منها تحمل لنا خصائصها ، من ذلك

---

(١) السيرة الحلبية ١ / ٣٧٩ .

(٢) انظر كتاب الجمعة فى صحيحى البخارى ومسلم والتنبيه للشيرازى (طبعة ليدن) ص ٤٠ .

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٦٤ .

أنه خطب بعشر كلمات : حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال[١] :

« أيها الناس! إن لكم مَعالمَ فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، إن المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى لا يدرى ما الله صانعٌ به ، وبين آجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبِيبَة قبل الكِبْرَة، ومن الحياة قبل الموت. فوالذى نفسُ محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » .

والخطبة على قصرها توضح لنا كيف كان الرسول يعظ أصحابه ويدفعهم دفعاً إلى العمل الصالح ، قبل أن يلبوا داعى الموت . فتبور تجارتهم ويذهب هباءً عملهم ، وإنهم لمعروضون على ربهم ، فموفَّون حسابهم ، فأما من اتبع هدى الإسلام فمصيره الجنة التى وصفها القرآن الكريم فأسهب فى وصفها ، وأما من أعرض وتولى ولم يذكر اسم ربه ولا صَلَّى ، ولا أخلص عمله لوجهه فمصيره النار التى أطنب القرآن فى بيان عذابها .

ولم تكن خطبه مواعظ فحسب ، بل كانت أيضاً تشريعاً وتنظيما لحياة هذه الأمة التى أخرجت للناس فى خير مثال تأمر بالمعروف وتتناهى عن المنكر ، ويتعاون أفرادها على البر والخير مما فيه صلاحهم وصلاح مجتمعهم . ولعل خير خطبة تشريعية تصور كيف كان ينظم هذا المجتمع الروحى ويُرْسى قواعده خطبته فى حجة الوداع ، وهى تمضى على هذا النحو[٢] :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضلَّ له، ومن يضْلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم ، عبادَ الله ، بتقوى الله وأحثُّكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو

---

(١) انظر كتاب البيان والتبيين ١/٣٠٢ .

(٢) نفس المصدر ٢/٣١ وانظر كتاب الجمعة فى صحيح البخارى والسيرة لابن هشام (طبعة الحلبى) ٤/٢٥٠ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤/٥٩ .

خير . أما بعد، أيها الناس! اسمعوا منى أُبَيِّنْ لكم فإنى لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا هل بَلَّغتُ ؟ اللهم اشهد .

فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدِّها إلى الذى ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوعٌ(١) ، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب — وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب — وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السِّدانة(٢) والسقاية(٣) . والعَمْدُ قَوَدٌ (٤) ، وشِبْهُ العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس ! إن الشيطان قد يئِسَ أن يُعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تَحْقِرون من أعمالكم . أيها الناس (إنما النَّسِىءُ(٥) زيادةٌ فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرِّمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرَّم اللهُ فَيُحِلُّوا ما حرَّم الله) . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حُرُمٌ : ثلاثة متواليات وواحد فرْد : ذو القِعدة وذو الحجة والمحرَّم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكم غيركم ، ولا يُدْخِلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ،

---

(١) موضوع : ساقط ، ومحرم .
(٢) السدانة : خدمة الكعبة .
(٣) السقاية : سقاية قريش للحجاج .
(٤) العمد : القتل المتعمد ، القود : قتل القاتل بقاتله .
(٥) النسىء : شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، وعاماً يحلونه إذا أرادوا الإغارة ، فيقولون إنه بعد صفر ويؤجلونه .

ولا يأتين بفاحشة مبيّنة ، فإن فعلْن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلُوهن[١] وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح[٢] ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكُسْوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان[٣] ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فُروجَهن بكلمة الله . فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً ألا هل بَلَّغْتُ ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس! إنما المؤمنون إخوة ولا يَحلُّ لامرئ مسلم مالُ أخيه إلا عن طيب نَفْس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعنَّ بعدى كُفَّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتابَ الله . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير . وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ .

أيها الناس ! إن الله قسمَ لكل وارثٍ نصيبه من الميراث فلا تجوز وصيةٌ لوارث فى أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحَجَرُ[٤] . من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مُواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يُقْبلَ منه صَرْفٌ[٥] ولا عدلٌ . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وواضح أن الخطبة تبدأ بحمد الله واستغفاره والتوبة إليه والاستعاذة من شرور النفس وسيئات العمل ونقائصه ، وتقترن بالشهادتين ، وتوصية المسلمين بعبادة الله وطاعته ، كما تقترن بكلمة « أما بعد » . ويمضى الرسول عليه السلام

---

(١) تعضلوهن : تضيقوا عليهن .

(٢) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .

(٣) عوان : جمع عانية ، وهى الأسيرة أى هن عندكم بمنزلة الأسرى .

(٤) للفراش أى لصاحبه ، فهو ينسب إليه ، وللعاهر الحجر ، أى رغم أنفها ، أو لعله يشير إلى رجمها .

(٥) صرف : انصراف ، عدل : عدول . أى لا يقبل منه شىء .

فيبين أن دماء المسلمين حرام كأموالهم ، فلا قتل ولا نهب ولا سلب ، فقد انتهى قتل النفس المحرمة وانتهى قطع الطرق ، وانتهت الخيانات بجميع ضروبها ، فمن كانت عنده أمانة لا يخنها ، بل فليؤدها مستوفاة إلى صاحبها . إنه مجتمع دينى جديد ، تتوثق فيه الروابط ، فلا ربا ولا أخذ بثأر ، وقد تداعتْ مآثر الجاهلية سوى سدانة الكعبة وسقاية الحجيج ، فهما مأثرتان ضروريتان للجماعة ، وهما لذلك باقيتان . أما شريعة الأخذ بالثأر التى كانت قوام حياتهم فى الجاهلية ، فقد قَضَى عليها الإسلام ، إذ جعل حق الدم للدولة ، فالقاتل المتعمد تقتله الدولة بصاحبه ، أما من قتل خطأ فديته مائة ناقة لا تزيد . ويخوفهم الرسول من الشيطان وما يدعو إليه من الشرور فقد انتهت عبادته ، ولكن لم تنته أطماعه فى تضليل الناس عن الجادة . وأيضاً فإنه انتهى عهد التلاعب فى الدين وفى الأشهر الحرم .

ولا ينظّم الرسول العلاقات بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة فحسب ، بل ينظمها أيضاً بينه وبين جماعته الصغرى من الأسرة ، فيدعو إلى رعاية حقوق المرأة ، وأن يعاملها الرجل برفق ورحمة ، وقد رفع الإسلام من شأنها ووضعها فى المكان اللائق بها ، فكفل لها حرية التصرف فى مالها كما كفل لها حق اختيار زوجها .

ويدعو الرسول إلى دعم الروابط بين أفراد الأمة ، فالمسلمون جميعاً إخوة متساوون فى الحقوق والواجبات ، لا غنى ولا فقير ولا أسود ولا أبيض ، ولا عربى ولا عجمى ، فالجميع سواء ، ولا فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح . ويشير إلى ما شرعه القرآن من نظام التوريث الجديد ، ويقرر أن المورِّث لا يحق له أن يحرم ورثته من ماله ، ويعطيه شيئاً من الحرية ، فيجعل له الحق أن يوصى لورثته ببعض ماله . ولكن على أن لا يزيد عن ثلثه . ويعرض لمشكلة كبرى من مشاكلهم ، هى الأبناء غير الشرعيين الذين وُلدوا فى الجاهلية ، فينسبهم إلى أصحاب الفراش . وكان من عادتهم أن يُنْسَبوا إلى غير آبائهم ، فقضى على تلك العادة السيئة حفظاً للأنساب .

وعلى شاكلة الخطبتين السالفتين كانت خطابة الرسول ، فهى إما موعظة حسنة وترغيب وترهيب وبيان لمسئولية المسلم الخلقية وأنه محاسب بين يدى ربه عن كل ما قدم فى حياته ، وهو يضع ذلك أمام عينيه ليصلحه ويقوِّم نفسه ويسمو به فى مراقى الكمال . وإما تشريع وتنظيم لمجتمعه وما ينبغى أن يسود فيه من عوامل الخير ودواعيه ، فالمسلم للمسلم كالبُنْيان يشد بعضه بعضاً ، فلا بغى ولا عدوان ، بل تآزر وتعاون فى قيام هذا المجتمع السليم .

ومن المحقق أن الرسول كان فى خطابته — كما كان فى حديثه — لا يستعين بخلابة ولا تزويق ، وقد برئتْ ألفاظه من الإغراب والتعقيد والاستكراه ، وهى مع ذلك ألفاظ جزلة لها بهاء ورونق ، تعمر بها القلوب والصدور وترتاح إليها الأسماع والأفئدة ، فتجتمع لها النفوس المتباينة الأهواء وتساق إليها بأزمتها ، إذ تلتحم بمعانيها وما تدعو إليه من سبيل الرشاد ، وهى — بلا ريب — مثل أعلى فى البراعة والدقة ، ونقصد دقة الحس ولطف الشعور ، ولعل مما يدل على ذلك قوله : « لا يقولنَّ أحدكم خَبُثَتْ نفسى ولكن ليَقُلْ لَقِستْ نفسى »[1] فقد كره أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه . ونؤمن بأن هذه العناية بحسن منطقه لم تكن نتاج تحبير أو تفكير إنما كانت نتاج ما خوله الله من نعمته فى بيانه الرائع .

وليس فى خطبتى الرسول السالفتين سجع ، ومن المؤكد أنه لم يكن يستخدم السجع فى خطابته ، بل كان ينفر منه بسبب استخدام الكهان له فى الجاهلية على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق ، ولذلك صَدَّ عنه كما صدَّ عنه خلفاؤه . رَوَى الطبرى أن عمر بن الخطاب سأل صحارا العبدىَّ البليغ المشهور عن مكران الفارسية أثناء غزو المسلمين لها ، فقال صحار : « يا أمير المؤمنين ! أرض سَهْلُها جبال ، وماؤها وَشَل[2] ، وتمرها دَقَل[3] ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل ، إن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلُّوا بها

---

(١) الحيوان للجاحظ ١/٣٣٥ ولقست النفس : غثت .

(٢) وشل : قليل .

(٣) دقل : أردأ التمر .

ضاعوا . فقال عمر : أسجَّاعٌ أنت أم مخبر ؟ فقال صحار : بل مخبر »[١] . وواضح أن عمر أنكر عليه استخدامه للسجع فى كلامه . ويَرْوِى الرواة أن عبد الله بن الزبير تكلم بكلام مسجوع عند معاوية ، فقال له : « تعلمت السَّجاعة عند الكبر »[٢] . وفى أخبار معاوية أنه كتب إلى رجل كتاباً ، فأملى على كاتبه : « لهو أهونُ علىَّ من ذرَّة ، أو كلب من كلاب الحرّة » ثم استدرك قائلا لكاتبه : « امْحُ من كلاب الحرة واكتب من الكلاب »[٣] . فالخلفاء كانوا يكرهون السجع لنهى الرسول ، صلوات الله عليه عنه . وليس معنى ذلك أنه انمحى محواً من خطابة هذا العهد ، فالجاحظ يقول : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة »[٤] ومن يرجع إلى حروب الردة يرى بعض المتنبِّئين مثل مسيلمة الكذاب يتكهنون ويسجعون فى كهانتهم ، وكان مسيلمة خاصة « يسجع السجاعات ، ويقولها مضاهاة للقرآن »[٥] ويقول الجاحظ إنه « عمَدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه »[٦] .

وقد انتهت هذه الموجة من سجع المتنبئين بانتهاء حروب الردة ، ولكن السجع بعامة لم ينته معها تماماً فقد ظلت الخطباء تسجع بين يدى الخلفاء على نحو ما يلاحظ الجاحظ .

وإذا نظرنا فيما أثر من خطب عند أبى بكر الصديق ومن تبعه من الخلفاء الراشدين وجدناهم يقتدون بالرسول فى خطابتهم ، فهم لا يستخدمون السجع فيها ، وهم يفتتحونها بحمد الله وتمجيده والصلاة على رسوله ويوشُّونها بآيات من القرآن الكريم وببعض أحاديث نبيه العظيم ، مستمدين من هذين الينبوعين الغزيرين فى وعظهم وفيما يسوقونه من وصايا وتعاليم . وكان الصِّدِّيق فى الذروة

---

(١) الطبرى ، القسم الأول ص ٢٧٠٧ وانظر البيان والتبيين ١/ ٢٨٥ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٠١ والعقد الفريد ٤/ ٣٦٨ والسجاعة : مصدر سجع .

(٣) رسائل الجاحظ (طبعة السندوبى) ص ١٥٥ .

(٤) البيان والتبيين ١/ ٢٩٠ .

(٥) الطبرى ، القسم الأول ص ١٧٣٨ ، ١٩٣٤ .

(٦) الحيوان ٤/ ٨٩ .

من البلاغة ومن البيان والفصاحة ، ومن خطبة له [١] :

« ألا إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك . . ألا إن الفقراء هم المرحومون ، ألا وإنكم اليوم على خلافة النبوة ومفرق المحجة [٢] . وإنكم سترون بعدى مُلكاً عضوضاً [٣] ، وسلكاً عنوداً [٤] ، وأمة شعاعاً [٥] ، ودما مُفاحاً [٦] ، فإن كانت للباطل نزوة ، ولأهل الحق جولة ، يعفو لها الأثر ، وتحيا بها السّنن ، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة ، ولا تفارقوا الجماعة » .

وكان كثيراً ما يخطب فى الجيوش الخارجة إلى الغزو فيوصيها ويوصى قادتها باتباع هَدْى الإسلام وبالجهاد فى سبيله وله وصية مشهورة يوصى فيها عمر حين استخلفه عند موته بتقوى الله واتباع الحق حتى لا يُلقى بيده إلى التهلكة [٧] وهو فى كل ما أثر عنه يحسن اختيار لفظه ، فى أسلوب مرسل يشفّ عن دقة حسه ومعرفته بمواضع الكلم ، ولعل مما يدل على ذلك أنه مرّ برجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا ، عافاك الله ، فقال أبو بكر : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله » [٨] .

وكان عمر بن الخطاب مثل صاحبه فى الأفق الأعلى من روعة البيان والخطابة ، وله خطب تدور فى كتب الأدب والتاريخ نكتفى منها بهذه القطعة [٩] :

« اقْدَعُوا [١٠] هذه النفوس عن شهواتها ، فإنها طُلَعَة [١١] ، وإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية ، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور [١٢] . إن هذا

---

(١) البيان والتبيين ٢/٤٣ وانظر عيون الأخبار ٢/٢٣٣ والعقد الفريد ٤/٥٩ وما بعدها .

(٢) المحجة : الطريق .

(٣) عضوض : شديد فيه عسف .

(٤) عنود : طاغ .

(٥) شعاع : متفرقة .

(٦) مفاح : سائل مهراق .

(٧) انظر الوصية فى البيان والتبيين ٢/٤٥ والعقد الفريد ٣/١٤٨ وراجع وصاياه الحربية لقواد جيوشه فى عيون الأخبار لابن قتيبة ١/١٠٨ وما بعدها .

(٨) البيان والتبيين ١/٢٦١ .

(٩) البيان والتبيين ٣/١٣٨ وقارن ١/٢٩٨

(١٠) اقدعوا : انهوا وكفوا .

(١١) طلعة : تتطلع إلى كل شىء .

(١٢) الدثور : الدروس .

الحق ثقيل مرىء[١] ، وإن الباطل خفيف وبىء[٢] ، وتَرْكُ الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعتْ شهوةً وشهوة ساعةٍ أورثتْ حزناً طويلا » .

وله وصايا كثيرة يوصى فيها قواد الجيوش الفاتحة بجنودهم وبمن يغزونهم من الأمم ، ومن أروع وصاياه وصية للخليفة من بعده ، ونسوق منها بعض نصائحه له ، يقول[٣] :

« أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً : أن تعرف سابقتهم . وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبَلْ من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيك بأهل الأمصار خيراً فإنهم رِدْءُ[٤] العدو وجُباة الأموال والفيء[٥] لا تحملْ فَيْئَهم إلا عن فضْل منهم . وأوصيك بأهل البادية خيراً . فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام : أن تأخذ من حواشى[٦] أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم . وأوصيك بأهل الذمة[٧] خيراً : أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم . وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ومخافة مقته أن يطلع منك على ريبة . وأوصيك أن تخشى الله فى الناس ولا تخشى الناس فى الله . وأوصيك بالعدل فى الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم[٨] ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم . . وآمرك أن تشتد فى أمور الله وفى حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم . . واجعل الناس سواء عندك لا تبالى على من وجب الحق ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاّك الله مما أفاء الله على المؤمنين ، فتجورَ وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسّعه الله عليك » .

---

(١) يقصد عمر أنه حميد العاقبة .

(٢) يقصد أنه وخيم العواقب .

(٣) البيان والتبيين ٢/٤٦ وانظر فى وصاياه لجيوش عيون الأخبار ١/١٠٧ .

(٤) ردء : معين أى يعينون على العدو .

(٥) الفيء : الغنيمة فى الحرب ، والخراج .

(٦) حواشى الأموال فى البادية : صغار الإبل والغنم .

(٧) أهل الذمة : أهل الكتاب فى البلاد المفتوحة .

(٨) الثغور : جمع ثغر وهو هنا الخلة والحاجة .

والوصية طويلة ، وهى أشبه بدستور قديم ، يضمنه عمر مواد الحكم كما فى شريعة الله وسنة رسوله ، وهى تجرى — شأنها شأن خطبه — فى هذا الأسلوب الناصع البرىء من الفضول ومن التكلف ، والذى يملأ السمع بجزالته ورصانته وقوته ، وكان خطيباً لا يبارى فى مخارج كلامه ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شدقيه شاء[1] . ولم يكن عثمان يبلغ من الفصاحة والبيان مبلغ صاحبيه ، ويروى أنه صعد المنبر ذات يوم ، فأرتج عليه ، فقال : « إن أبا بكر وعمر كان يُعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب »[2] .

أما على بن أبى طالب فإنه لم يكن يقل عن أبى بكر وعمر شأواً فى خطابته ، وقد أثرت عنه خطب كثيرة ، ولا نقصد الخطب التى يحتويها بين دفتيه كتاب « نهج البلاغة » فأكثره مصنوع ومحمول عليه . وقد أشار إلى ذلك كثير من العلماء ، واختلفوا هل هو من عمل الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ للهجرة أو هو من عمل أخيه الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ للهجرة ، يقول ابن خلكان فى ترجمة أولهما بكتابه وفيات الأعيان : « قد اختلفت الناس فى كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، هل هو جمْعه أم جمع أخيه الرضى ، وقد قيل إنه ليس من كلام على ، وإنما الذى جمعه ونسبه إليه هو الذى وضعه » . ويردد هذا الكلام اليافعى فى مرآة الجنان[3] وابن العماد فى شذرات الذهب[4] ، ويؤكد الذهبى فى ميزان الاعتدال أن الشريف المرتضى هو الذى وضعه[5] ، ويذهب مذهبه ابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان ، يقول : « من طالع نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، ففيه السبُّ الصراح والحطّ على السيدين :

---

(١) البيان والتبيين ١/٦٢ .
(٢) نفس المصدر ١/٣٤٥ وانظر عيون الأخبار ٢/٢٣٥ والعقد الفريد ٤/٦٦ وزهر الآداب ١/٣٦ .
(٣) مرآة الجنان (طبعة حيدرآباد) ٣/٥٥
(٤) شذرات الذهب (طبعة القاهرة) ٣/٢٥٧ .
(٥) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو) ٢/٢٠١ .

أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وفيه من التناقض والأشياء الركيكة والعبارات التي مَنْ له معرفة بنفس القرشيين الصحابة وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب أكثره باطل»[١] . ويذهب النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضي[٢] ، وهذا هو الصحيح بشهادة الرضي نفسه وشهادة شراح كتابه ، فقد ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي ألفه ووسمه باسمه نهج البلاغة [٣] كما ذكر ذلك في كتابه « مجازات الآثار النبوية »[٤] ونجد ابن أبي الحديد المتوفى سنة ٦٥٥ في شرحه للكتاب يعترف بأن خطبته من عمل الشريف الرضي ،ويذهب ابن ميثم البحراني في شرحه عليه إلى أنه من تأليف الشريف .

وإذن فالكتاب من عمل الشريف الرضي وصنعه ، ويظهر أنه لم يؤلفه جميعاً ، فقد أضاف قبله كثير من أرباب الهوى وفصحاء الشيعة خطباً وأقوالا إلى علي بن أبي طالب ، يدل على ذلك ما جاء في مروج الذهب للمسعودي إذ يقول : « الذي حفظ الناسُ عن علي من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة ، تداول الناس ذلك عنه قولا وعملا »[٥] . وكأن الشريف الرضي وجد مادة صاغ منها كتابه ، وهي مادة بُنيت على السجع ، وفي ذلك نفسه مايدل على كذب نسبتها إلى علي، إذ ليس من الطبيعي أن يسجع علي في خطابته ، بينما ينهى الرسول الكريم عن السجع ، ويتحاماه أبو بكر وعمر وعثمان في خطابتهم .

ومعنى هذا كله أنه لايصح الاعتماد على هذا الكتاب في تصور خطابة علي وأنه ينبغي الرجوع إلى المصادر الأولى ، مثل البيان والتبيين للجاحظ ، وقد روى

---

(١) لسان الميزان (طبعة حيدر آباد) ٤/٢٢٣ .

(٢) كتاب الرجال (طبعة بومباى) ص ١٩٢ ، ٢٨٣ .

(٣) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف الرضي (طبعة النجف) ص ١٦٧ .

(٤) مجازات الآثار النبوية (طبع بغداد) ص ٢٢ ، ٤١ .

(٥) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤/٤٤١

طرفاً من خطبه وكلامه ومواعظه ، وقد دفعته حروبه مع طلحة والزبير وعائشة ثم مع معاوية إلى أن يكثر من دعوة جنوده إلى جهاد أعدائه وتحميسهم للكفاح والنضال فى سبيل مبدئهم وفكرتهم[1] .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على نهضة الخطابة فى هذا العصر الأول من عصور الإسلام، إذ أتيح لها من نبوة الرسول ورسالته وبيانه وبلاغته ما اتخذه خلفاؤه الراشدون لهم إماماً . وفرق بعيد بين خطب هذا العصر وخطب الجاهلية ، فالأخيرة جمل وصيغ لا رابط بينها تأخذ فى الأكثر شكل حكم متناثرة ، يسردها الخطيب سرداً ، أما فى هذا العصر فقد أصبح للخطبة غاية دينية واضحة تسمو بالعربى فى مراقى الفلاح الروحى ، وقد تخوض فى تنظيمات حربية أو اجتماعية . وكل ذلك معناه أنها أصبحت ذات موضوع تدور عليه وأنها رقيت رقياً بعيداً .

٣

الخطابة فى العصر الأموى

ازدهرت الخطابة فى هذا العصر ، وقد عملت فى هذا الازدهار وهيأت له أسباب مختلفة ، منها السياسى ، ومنها الدينى ، ومنها العقلى ، أما من حيث السياسة فقد كثرت الأحزاب السياسية المعارضة لبنى أمية وكثر مشعلو الفتن والحروب الداخلية . ومعروف أن الدولة الأموية قامت على أنقاض فتنة عثمان وما انتهت إليه من حروب صفين بين على ومعاوية . وبمجرد أن قبل علىٌّ التحكيم خرج عليه فريق من جيشه سُمِّى الخوارج ، وشهروا سيوفهم فى وجهه ، وعبثاً حاول العودة بهم إلى صفوفه ، فحاربهم وتصدى له أحدهم فقتله . وخلص

---

(١) انظر البيان والتبيين ٢/٥٣ وما بعدها والمبرد وعيون الأخبار والطبرى فى مواضع متفرقة . وراجع العقد الفريد ٤/٦٦ وما بعدها والكامل

الأمر لمعاوية وخلفائه من بنى أمية فظل هؤلاء الخوارج ينازلونهم ، ويعدون دار المسلمين دار حرب ، فيجب أن يجاهدوهم ، إذ جعلوا الخلافة فى قريش وهى ليست حقًّا من حقوقها وإنما هى حق لله ، وينبغى أن يليها من يستحقها بمشورة المسلمين ، وأن يكون خيرهم تقوى وزهداً وورعاً ، ولو لم يكن قرشيًّا ، بل لو كان عبداً حبشيًّا . وقد تعددت فرقهم ، وأهمها الأزارقة فى فارس ، والنجدات فى اليمامة وحضرموت والبحرين ، والصُّفْرِيَّة فى الموصل وشمالى العراق ، والإباضية فى اليمن وحضرموت .

ولا نتقدم إلى عصر يزيد بن معاوية حتى يرسل شيعة على إلى ابنه الحسين أن يفد عليهم فى الكوفة لمبايعته وإعلان الثورة على بنى أمية وصاحبهم يزيد ، وما يكاد يلم بالعراق حتى يقعدوا عن نصرته ، فيُسْفَكُ دمه . ويندمون على ما كان من تضييعه ، ويتجهون إلى الدعوة السرية لأبناء على ، ومن حين إلى حين تنشب ثوراتهم ، ولعل أهمها ثورة المختار الثقفى لعهد مصعب بن الزبير ، ثم ثورة زيد بن على بن الحسين لعهد هشام بن عبد الملك ، وقضى الأمويون على الثورة الأخيرة بينما قضى مصعب على ثورة المختار . وكان هذا الحزب الشيعى يؤمن بأن الخلافة من حق أبناء على فهم ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم لذلك ورثتها الشرعيون . وقد ذهبوا إلى أن إمامة على نص عليها الرسول ، ومن هنا تأتى عقيدة الوصية التى يدين بها الشيعة جميعاً ، كما يدينون بعقيدة المهدى ، وهو الإمام المنتظر الذى يخلِّص العالم مما فيه من شرور . وأسباب مختلفة جعلت الفرس يدخلون فى هذه العقيدة ، إذ كانوا قبل الإسلام يؤمنون بتوارث الملك فى أسرة بعينها ، على هذا القياس يصبح أحق الأسر القرشية بالملك العربى بنى هاشم وأبناء على خاصة ، فهم أقرب الناس إلى الرسول ، وأيضاً فإن عليًّا كان يسوّى بينهم وبين العرب فى الحقوق بينما كان يضطهدهم الأمويون وولاتهم ، ولعل شيئاً من تشيعهم يرجع إلى كرههم لمن غلبوهم على بلادهم ، وكأنما رأوا فيه ضرباً من المقاومة لهؤلاء الغالبين .

وبجانب الحزبين السابقين ، حزبى الشيعة والخوارج ، توالت الثورات على

بنى أمية ، فثار عبد الله بن الزبير فى الحجاز أثناء خلافة يزيد ، واستقل بها نحو عشر سنوات ، وتبعته العراق ومصر ، إلا أن عبد الملك بن مروان استطاع القضاء عليه . وثار فى العراق وإيران عبد الرحمن بن الأشعث ، ودوّخ الحجاج طويلا قبل أن يقضى على ثورته . وفى أوائل القرن الثانى للهجرة ثار بالعراق أيضاً يزيد بن المهلب ، وكان مصيره مصير ابن الأشعث . ولا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى يُجمع الشيعة أمرهم فى خراسان ويؤلفوا جيشاً يقضون به على الدولة الأموية قضاء مبرماً .

وهذه الأحزاب والثورات لم تكن تستعين فى انتقاضها على الأمويين بالسيوف فحسب ، بل كانت تستعين بالخطب والخطباء يدعون لها ويحمسون الناس على الانفضاض عن بنى أمية . ومن المهم أن نعرف أن السياسة على ألسنة هؤلاء الخطباء كانت تقترن بالدين لسبب بسيط ، وهو أن الخليفة عند المسلمين يعد إمامهم الذى تنتظم به مصالحهم وقواعد ملّهم على مقتضى الشريعة الإسلامية .

وبجانب هذا السبب السياسى الذى دلع الخطابة وسَعَّرَ بها الفتن والثورات على الأمويين سبب دينى خالص ، إذ أسّست فى كل بلد إسلامى مدرسة دينية تعلم الناس أصول دينهم وفروعه ، وكان العلماء القائمون عليها كثيرا ما يختلفون فيتحاورون فى وجهات نظرهم[1] . ولم تلبث أن انبثقت أبحاث كثيرة ومناقشات طويلة فى القدر وإرادة الإنسان ومدى حريته وفى الإيمان وهل من الضرورى له أن يرافقه العمل ، وفى صفات الله وهل هى عين الذات الإلهية ، وسرعان ما ظهرت فرق الجبرية والقدرية والمرجئة . فكان ذلك باعثاً على ظهور المناظرات ، وهى فرع مهم من فروع الخطابة .

وليس هذا فحسب ما أنتجه الدين فى خطابة القوم ، فقد بقى ركنان مهمان هما القصص والوعظ ، إذ كانت هناك طائفة تُعْرَفُ بالقُصَّاص ، تفسر

---

(١) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ والبيان والتبيين ١/٢٤٣ .

القرآن الكريم ، وتمزج تفسيرها بقصص كثيرة تستمدها من موروثات أهل الكتب السماوية ، وكانوا يستغلون ميل الناس إلى الأخبار العجيبة فيتزيدون فى قصصهم ، وكانت الأحزاب السياسية تتخذ نفراً منهم وسيلة للدعوة لها ولتحميس جنودها حين تثور بالدولة[١] ، وكان للأمويين فى كل بلد قاصٌّ يقص على الناس فى المسجد الجامع ويدعو إلى طاعتهم[٢] . واتسعت بجانب ذلك موجة الزهد والعبادة والنسك ، وتبعها ظهور وعاظ كثيرين ، تموج كتب الأدب بمواعظهم وما كانوا يدعون إليه من الزهد فى حطام الدنيا ، ومجاهدة النفس حتى ترفض عرض الحياة ومُتَعَها الزائلة وتطلب ما عند الله من ثواب الآخرة .

ورافق هذا السببَ الدينى فى ازدهار الخطابة سببٌ عقلى مرده إلى عناصر الثقافات الأجنبية التى أخذ يُدْعَمُ بها العقل العربى منذ هذا العصر الأموى ، مما فتق فيه قوة الجدل والحجاج . ومعروف أن الثقافة لهذا العصر لم يكن يضطلع بها العرب وحدهم ، بل كان يشركهم فيها الموالى الذين اتخذوا العربية لسانهم وقد أخذوا يزوّدونها بمعارفهم وثقافاتهم القديمة . وقد تعود مؤرخو الأدب العربى أن يقفوا فى هذا الجانب من التزاوج بين العرب والموالى فى الفكر والثقافة عند العصر العباسى ، عصر الترجمة المنظمة لما كان عند اليونان والفرس والهند . وينبغى أن نلاحظ أن هذا العصر الذى نُظِّمت فيه الترجمة سبقه عصر ، هو العصر الأموى ، لم تكن تعرب فيه الكتب إلا نادراً ، كما هو معروف عن خالد بن يزيد بن معاوية وطلبه لما عند الأجانب من معارف ، ولكن كان يعرَّب فيه لسان حَمَلة هذه الكتب ، وكانوا سيولا من شعوب الشرق الأوسط وأممه ، دخلوا فى الإسلام ، ودخلت معهم ثقافاتهم . وقد أقبلوا على الدراسات الدينية والعقلية يسهمون فيها بالحظ الأوفر ، فإذا قلنا إنهم ارتقوا بالعقل العربى

---

(١) الطبرى : القسم الثانى ص ٩٥٠ وابن الأثير (طبعة ليدن) ٤/٣٤١ .

(٢) خطط المقريزى ٢/٢٥٣ والولاة والقضاة للكندى (طبعة جيست) ص ٣١٤ ، وقارن بالهامش فى ص ٣٠٤ .

وكل ما أنتجه فى ذلك العصر من خطابة وغير خطابة لم نكن مبالغين ، فقد كثرت المعرفة وتشعبت المعانى ودقّت الفطن ، ولم يعد لها حدٌّ تنتهى إليه ، وانسابت من ذلك أسراب كثيرة فى خطابتهم ، فصاروا أقدر على البيان والتصرف فى الألفاظ .

ويخيَّل إلى من يقرأ فى أخبار القوم أنهم أصبحوا جميعاً خطباء ، فهم يخطبون فى نظرياتهم السياسية وفى معتقداتهم الدينية ويتناقشون فيها بكل مكان ، فى المسجد الجامع وفى الطرقات والأسواق ، وفى السلم وحين يتحاربون ، ومن ورائهم القصاص والوعاظ ، وقد جعل ذلك الجاحظ ينبهر انبهاراً شديداً ، فيخص العرب بالخطابة ويرفعهم درجات فوق الفرس واليونان[1] ، وقد يكون مصيباً فيما يختص بالفرس ، أما اليونان فأكبر الظن أنه لم يقرأ شيئاً واضحاً عن خطابتهم ، وإلا ما بالغ فى رأيه وذهب هذا المذهب ، فإن من المعروف أن الخطابة نهضت عند اليونان نهضة واسعة ، إذ كانت لديهم مجالس شورية وقضائية أعدت لازدهار الخطابة عندهم ازدهاراً أتاح لأرسطاطاليس أن يكتب فيها وفى أنواعها وأغراضها وأساليبها كتاباً كبيراً ، وأكبر الظن أن الجاحظ لم يعرف شيئاً من ذلك كله ، وهو كذلك لم يعرف شيئاً عن خطباء اليونان المشهورين أمثال ديموستين وبركليس .

ومهما يكن فقد ارتقت الخطابة رقيًّا بعيداً فى العصر الأموى ، ونشطت نشاطاً لعل العرب لم يعرفوه فى عصر من عصورهم الوسيطة ، إذ اتخذوها أداتهم للظفر فى آرائهم السياسية والانتصار فى مجادلاتهم المذهبية ، وعولوا عليها فى قصصهم ومواعظهم ، وفى وفادتهم على الخلفاء والولاة ، ومن ثم أينعت فيها فروع ثلاثة ، هى الخطابة السياسية وخطابة المحافل والخطابة الدينية ، ونلم بكل فرع من هذه الفروع إلمامة قصيرة .

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٧ وما بعدها .

الخطابة السياسية

كان كل حزب من الأحزاب السياسية يتخذ الخطابة وسيلة إلى نقد خصومه وبيان نظريته السياسية واستمالة الناس إليها وكذلك كان يصنع الثائرون على بنى أمية من أمثال يزيد بن المهلب فى تحريك الناس إلى الثورة عليهم وكأنما قامت عندهم جميعاً بما تقوم به الصحافة فى عصرنا من الدعاية للآراء السياسية ، فانبرى خطباء كل حزب يدعون إلى نظرية حزبهم وبيان أنهم على الحق وخصومهم على الباطل ، فهم الجديرون بأن يعتنق الناس مبادئهم ويذودوا عنها ذياداً.

وكان الخوارج يصفون بنى أمية بجورهم فى الأحكام وتعطيلهم حدودَ الله ، ويتناولونهم بألسنة حداد وقد يضيفون إلى ذلك مواعظ تصور عمق تدينهم وتمسكهم بالعروة الوثقى ، ومن أشهر خطبائهم قَطَرِيُّ بن الفجاءة وتحتفظ كتب الأدب له بموعظة رائعة[١] ، ومن خطبائهم أبو حمزة الخارجى ، وقد روى الجاحظ خطبة طويلة ألقاها فى أهل مكة[٢] ، وهو يفتتحها بالحديث عن رسول الله وهَدْيه واقتداء أبى بكر وعمر به ، أما عثمان فعنده أنه أتى بما أحبط به الأوائل ، وأما على فلم يبلغ — فى رأيه — من الحق قصداً . ثم اقتصّ خلفاء بنى أمية خليفة خليفة يثلبه ، إلا عمر بن عبد العزيز فإنه أعرض عنه . ونراه ينحى باللائمة على من يتشيعون لآل البيت ، ثم يصف أصحابه ونضالهم دون عقيدتهم وصفاً رائعاً . ومن خطباء الخوارج المشهورين زيد بن جندب خطيب الأزارقة[٣] وابن صُديقة وكان صُفريًّا ناسكاً وشُبَيْل بن عَزْرَة الضُّبَعى وعمران ابن حطان وحبيب بن حُدرة الهلالى والمُقَعْطَل وعبيدة بن هلال اليشكرى[٤] ومنهم الضحاك بن قيس ونصر بن ميلحان[٥] وعبد الله بن يحيى طالب

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٢٦ والعقد الفريد ٤/١٤١ وعيون الأخبار ٢/٢٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٢٢ وانظر العقد الفريد ٤/١٤٤ والأغانى ٢٠/١٠٤

(٣) البيان والتبيين ١/٤٢ .

(٤) نفس المصدر ١/٣٤٣ – ٣٤٧ .

(٥) انظر فى هؤلاء الخطباء نفس المصدر ٢/٣٦٤ وما بعدها .

الحق[١] والطِّرِمَّاح[٢] وغيرهم كثير .

ولا يقل خطباء الشيعة كثرة عن خطباء الخوارج ، ومن أشهرهم الحسين ابن على بن أبى طالب وعلى بن الحسين وزيد بن على والمختار الثقفى وسليمان بن صُرَد وعبدالله بن مطيع وعبيد الله المرِّىّ ، ومنهم بنو صُوحان : صعصعة وزيد وسَيْحان . وكانوا يكثرون من القدح فى بنى أمية وأنهم اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين ورثة النبوة وحملة الرسالة القدسية الهادين المهديين والأئمة المنتظرين[٣] .

ولم تطل مدة عبد الله بن الزبير ومع ذلك فقد ملأ دفاتر العلماء كلاماً[٤] ، وكان أخوه مصعب واليه على العراق خطيباً مفوهاً وله خطبة جعلها كلها آيات قرآنية[٥] . وكان حول ابن الأشعث كثير من الخطباء[٦] ، وكان يزيد بن المهلب خطيباً مفوهاً ، وقد روى الجاحظ بعض خطبه[٧]

وكان يقف فى الصف المقابل من خطباء الأحزاب والثورات خطباء بنى أمية يدعون الناس إلى التمسك بحبل الجماعة وتأييد الأمويين فى حقوقهم التى اكتسبوها عن آبائهم ، وتقديمهم لهم فروض الطاعة والولاء ، وكثيراً ما يخلطون ذلك بالترهيب والترغيب ، وقد يشيرون إلى مقتل عثمان وأن الأمويين أولياء دمه وورثة خلافته . ولهم مواعظ لا نشك فى أنهم قالوها فى صلاة الجمعة والعيدين ككثير مما روى عن زياد والحجاج ، وعن بعض خلفائهم وخاصة عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد المشهور . وأكثر خلفائهم كان خطيباً ، ولهم خطب تدور فى كتب الأدب والتاريخ . ومن خطبائهم بجانب من قدمنا عتبة بن أبى سفيان والى معاوية على مصر وعبيد الله بن زياد وخالد بن عبد الله القَسْرى ويوسف

---

(١) الأغانى ٢٠/٩٨ .
(٢) البيان والتبيين ١/٤٦ .
(٣) الطبرى ، القسم الثانى ص ١٩٦١ .
(٤) البيان والتبيين ١/٣١٤ وانظر خطبه فى العقد الفريد ٤/١٠٧ .
(٥) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والعقد الفريد ٤/١٣٥ .
(٦) البيان والتبيين ١/٤٨ وانظر ٢/١٥٥ .
(٧) البيان والتبيين ١/٢٩٢ وانظر العقد الفريد ٤/١٢٧ .

ابن عمر الثقفى وسعيد بن العاص وابنه عمرو الأشدق، ومن قوادهم الخطباء موسى ابن نصير وطارق بن زياد اللذان فتحا الأندلس وقتيبة بن مسلم ونصر بن سيار فاتح التركستان .

وعلى هذا النحو كان لكل حزب خطباؤه الذين يذودون عنه وينافحون عن مبادئه ، ولم يكن هناك داع لفكرة أو لنضال فى حرب لا يقف فى الناس خطيباً ، وقد بعث ذلك على نهضة الخطابة السياسية فى هذا العصر نهضة واسعة . ولعل هذه النهضة هى التى جعلت المؤرخين حين يعرضون علينا الآراء السياسية أو المذهبية لزعماء هذا العصر يعرضونها علينا فى شكل خطب ، على نحو ما نجد فى الطبرى وابن الأثير ؛ فهم إذا أرادوا أن يعرضوا علينا رأياً للحسين ابن على أو لحفيده زيد أو لأى داع شيعى أو خارجى أو أى ثائر زبيرى وغير زبيرى أو لأى وال أموى أو قائد يقود الجيوش عرضوه فى صورة خطبة ، فهم لا يقولون إن فلاناً كان يرى كذا أو كذا ، وإنما يقولون خطب فلان فقال كذا وكذا . فهم لا يتصورون صاحب نحلة سياسية يعرض رأيه فى شكل حديث بل لابد أن يعرضه فى شكل خطبة يقرع بها الأسماع ويجذب القلوب .

خطابة المحافل

نمت الخطابة الحفلية فى هذا العصر بحكم نمو السلطان العربى ، فكانت الرجال والوفود تَقْدُم على الخلفاء والولاة لأغراض مختلفة : للشكوى أو للاستمناح أو للتهنئة أو للتعزية أو للموعظة أو لغير ذلك من الأغراض . وقد رُوى فى كتب الأدب كثير من أخبار هذه الوفادات . وممن وفد على معاوية النخّار ابن أوس العُذْرى[1] وعمرو بن سعيد الأشدق[2] وزُرْعة بن ضَمرة ، وهو الذى كان يقال فيه « لولا غلوٌّ فيه ما كان كلامه إلا الذهب » وكان ابنه النعمان من أخطب الناس وقد وقع فى يد الحجاج بعد قضائه على ثورة ابن الأشعث

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٣٧، ١/٣٣٣ . (٢) نفس المصدر ١/٣١٥ - ٣١٦ .

فتخلص منه بكلام لطيف[١] . وممن وفد على معاوية رَوْح[٢] بن زِنْباع وصحار العبدى ، ويروى أن معاوية قال له : ما هذا الكلام الذى يظهر منك ؟ قال : شىء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا [٣] ومن الوافدين عليه سحبان وائل ، وقد اشتهرت له خطبة خطب بها بين يديه ، وكانت العرب تسميها الشوهاء من حسنها [٤] ، ومنهم الأحنف بن قيس سيد تميم ، ومما نطق به فى حضرته ، معبراً عن شكاة لقومه[٥] :

« إن دافّة دفّتْ[٦] ، ونازلة نزلت ، ونائبة نابتْ ، ونابتة نبتت[٧] ، كلهم به حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه ، فقال معاوية : حسبك يا أبا بحر ، قد كفيت الشاهد والغائب » .

ولما فكر معاوية فى جعل ابنه يزيد ولياً لعهده استقدم وفود العرب من الأمصار والبادية ، فكانوا يخطبون بين يديه منوهين بيزيد ، ومبايعين له ، سياسة حكيمة منه ، حتى يبرم الأمر من بعده لابنه [٨] . ولما توفى وجلس ابنه يزيد مكانه دخل عليه عطاء بن أبى صيفى الثقفى ، فخطب بين يديه بقوله [٩] :

« يا أمير المؤمنين أصبحتَ قد رُزئتَ خليفة الله ، وأعطيتَ خلافة الله ، وقد قضى معاوية نَحْبه ، فغفر الله ذنبه ، وقد أعطيت بعده الرياسة ، ووَليتَ السياسة ، فاحتسبْ عند الله أعظم الرزيّة ، واشكره على أفضل العطية » .

وكان عبد الملك يجلس للوفود وخطبائها ، وممن وفد عليه سعيدُ بن عمرو بن

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٥٤ – ٣٥٥ .
(٢) نفس المصدر ١/٣٥٨ .
(٣) البيان والتبيين ١/٩٦ وقارن ٤/٤٦ والعقد الفريد ٤/٣١ .
(٤) نفس المصدر ١/٣٤٨ وانظر زهر الآداب ٤/٣٣ .
(٥) البيان والتبيين ٢/٨٨ .
(٦) دافة دفت : نازلة شديدة نزلت فاستأصلت ما بأيديهم ، ويمكن أن يكون ذلك استعارة لفقراء البادية الذين أجدبوا ونزلوا بهم .
(٧) النابتة هنا : الصغار الناشئون ، أما النائبة فيمكن أن يراد بهم الأضياف ينوبون القوم وينزلون بهم .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وانظر العقد الفريد ٤/٣٦٩ حيث روى طرفاً من تلك الخطب .
(٩) البيان والتبيين ٢/١٩١ وقارن بزهر الآداب ١/٤٩ .

سعيد [١] والهيثم بن الأسود بن العريان ، وقد سأله عبد الملك كيف تجدك ؟ قال : « أجدني قد ابيضَّ مني ما كنت أحب أن يسودّ ، واسودَّ مني ما كنت أحب أن يبيضَّ ، واشتد مني ما كنت أحب أن يلين ، ولان مني ما كنت أحب أن يشتد »[١] . ولما توفي عبد الملك وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنئونه أم يعزُّونه ، فأقبل غَيْلان بن سَلمة الثَّقفي فسلَّم عليه ، ثم قال [٣] :

« يا أمير المؤمنين ! أصبحتَ قد رُزئت خير الآباء ، وسُمِّيت خير الأسماء ، وأعطيتَ أفضل الأشياء ، فعظَّم الله لك على الرزيَّة الصبر ، وأعطاك في ذلك نوافل الأجر ، وأعانك على حسن الولاية والشكر ، ثم قضى لعبد الملك بخير القضية ، وأنزله بأفضل المنازل المرضية ، وأعانك من بعده على الرعية » .

ولم يكن يتولى الخلافة أموي إلا وتقدم الوفود عليه من الأمصار ، ويقوم خطباؤها بين يديه مهنئين مبايعين ذاهبين في خطبهم كل مذهب . ومن حين إلى حين كانت تقدم هذه الوفود على الخليفة لترفع مظلمة لها ، أو لتنال بعض الرِّفد والعطاء ونجد الوعاظ كثيراً ما يلمون بمجالس الخلفاء ويعظونهم ، على نحو ما كان يعظ أبو حازم الأعرج سليمان بن عبد الملك [٤] ، ولما تولى عمر بن عبد العزيز كان يقدم عليه النساك والزهاد لوعظه ، لما اشتهر عنه من نسكه وعبادته ، من مثل زياد بن أبي زياد ، وكان يلزمه محمد بن كعب القرظي ، وله أخبار معه ومواعظ [٥] ، وكان خالد بن صفوان يلزم هشام بن عبد الملك ويعظه [٦] .

وعلى نحو ما كانت تفد الوفود والوعاظ على الخلفاء كانت تفد على الولاة ، وممن وفد على زياد وخطب بين يديه في وفد من قومه عمران بن حطَّان[٧] ،

---

(١) البيان والتبيين ١/٣١٦ .
(٢) نفس المصدر ١/٣٩٩ ، ٢/٦٩ .
(٣) البيان والتبيين ٢/١٩١ – ١٩٢ .
(٤) البيان والتبيين ٣/١٣٥ .
(٥) نفس المصدر ٢/٣٤ ، ٣/١٤٣ ، ٣/١٧٠ . وانظر عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/٣٤٣ ، ٢/٣٧٠ .
(٦) عيون الأخبار ١/٣٤١ .
(٧) البيان والتبيين ١/١١٨ .

وكان الأحنف يفد على ابن الزبير كما كان يفد على معاوية ، ويفد معه خطباء من قومه [١] ، وكم من خطيب تخلص من عقاب الحجاج بحسن منطقه [٢] ، ولما دخل أيوب بن القِرِّيَّة عليه قال له : « ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : ثلاثة حروف ، كأنهن رَكْبٌ وقوف : دنيا وآخرة ومعروف » وقال له فى بعض القول : « أقِلْنى عَثْرتى وأسِغْنى ريقى ، فإنه لابد للجواد من كَبْوة ، وللسيف من نَبْوة ، وللحليم من هفوة »[٣] . وكان كثيراً ما يستنطق الوافدين عليه [٤] . ولما ولى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز على العراق كان يحضر مجلسه الوعاظ ، ويعظونه [٥] كما كانوا يعظون أباه .

ومما يدخل فى هذا الضرب من خطابة المحافل خطابة الإملاك والتزويج[٦] وخطابة الصلح بين العشائر [٧] ، وما كان من منازعات ومفاخرات فى مجالس الخلفاء[٨] ، ويسوق الجاحظ فى بيانه أخباراً كثيرة عن هذه الصور من الخطابة وما كان يفترق به بعضها عن بعض [٩] .

الخطابة الدينية والوعظ والمناظرات

نمت هذه الخطابة فى عصر بنى أمية نموًّا واسعاً ، فقد كانت فريضة مكتوبة على المسلمين فى صلاة الجماعة والعيدين وكان الخلفاء والولاة يؤمّون الناس فى تلك الصلاة ، ولذلك نقرأ لكثير منهم خطابات زاهدة ، يحضّون الناس فيها على الانصراف عن الدنيا والتعلق بالآخرة ويحثونهم على الخير والفضيلة

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٠ .
(٢) نفس المصدر ١/٢٥٩ — ٢٦٠ والعقد الفريد ٢/٤٦٤ .
(٣) البيان والتبيين ١/٣٥٠ وزهر الآداب ٤/٤٩ وعيون الأخبار ١/١٠٢ .
(٤) البيان والتبيين ٢/١٦٤ .
(٥) البيان والتبيين ١/٢٤ .
(٦) انظر البيان والتبيين ١/٤٠٤ ، ٤/٧٣ العقد الفريد ٤/١٤٩ وعيون الأخبار ٤/٧٢ .
(٧) البيان والتبيين ٢/١٣٥ وانظر ١/١٠٥ ، ١/١٧٣ .
(٨) انظر البيان والتبيين ٢/٩٠-٩٢ وانظر العقد الفريد ٤/٤ وما بعدها والنزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم للمقريزى .
(٩) البيان والتبيين ١/١١٦ ، ٣/٦ .

والأعمال الصالحة . وأخطبُ الخلفاء فى هذا الباب عمر بن عبد العزيز ، وله خطب كثيرة ، يدعو فيها الناس إلى طاعة الله والنفور من معصيته وأن يفكروا فى الموت وما بعده من البعث والحساب والجنة والنار ، ولعل والياً لم يؤثر عنه من الخطب الدينية ما أثر عن الحجاج ، وكان دائماً يقول : « أيها الناس إن الكفَّ عن محارم الله أيسرُ من الصبر على عذاب الله »[1] وللولاة من قبله وبعده مواعظ ترويها كتب الأدب والتاريخ[2] .

وإذا كان هذا اللون من الخطابة قد شاع على ألسنة الخلفاء الأمويين وولاتهم فإن خصومهم من الخوارج والشيعة كانوا لا يقلون عنهم دعوة إلى التقوى والورع ، بل لعلهم كانوا يتقدمونهم ، إذ لم يكن بأيديهم شىء من الدنيا ، وكانوا يمزجون خطابتهم السياسية بالدين ، وقد يجعلونها دينية خالصة ، على نحو ما صنع قَطرىّ بن الفجاءة فى موعظته المشهورة[3] ، وشدّاد بن أوس أحد شيعة علىّ فى موعظته بين يدى معاوية ، وقد طلب إليه أن يتنقّص علياً[4] ، وتدور فى كتب الأدب كلمات كثيرة لزيد بن على بن الحسين ، هى من بقايا خطبه[5] ، وكان ينازعه جعفر بن حسن بن الحسن بن على فى الإمامة ، فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوباتهما ومجادلاتهما فى أيهما الأحق بها[6] .

غير أن هؤلاء جميعاً لم يتخصصوا بالخطابة الدينية ، ولم يعيشوا لها ، وإنما الذى عاش لها هم القُصَّاص والوعاظ ، وقد نشأ القصص منذ عصر عمر ابن الخطاب ، فكان هناك قُصَّاص يقصون فى المساجد[7] وآخرون يقصون فى

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٨٧ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٨٧ و ٢/١٤٣ والعقد الفريد ٤/١٣٤ وما بعدها وعيون الأخبار ٢/٢٤٦ ، ١/٢٥١ .

(٣) البيان والتبيين ٢/١٢٦ وعيون الأخبار ٢/٢٥٠ .

(٤) البيان والتبيين ٤/٦٩ وعيون الأخبار ١/٥٥ .

(٥) البيان والتبيين ١/٣٥٣ وزهر الآداب ١/٧٢ .

(٦) البيان والتبيين ١/٣٣٤ وانظر زهر الآداب ١/٧٣ .

(٧) طبقات ابن سعد ٥/٣٤١ .

مقدمة الجيوش الفاتحة [١]. واتسعت هذه الموجة اتساعاً شديداً فى عصر بنى أمية ، إذ استخدمتها الدولة كما استخدمها خصومها فى الدعوة السياسية ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين فى اليوم ، مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب [٢] ، وعُيِّن للقصاص مرتبات خاصة[٣]. وكان للخوارج قصاص كثيرون ، أشهرهم صالح بن مسرِّح ، وكان يخلط مواعظه وقصصه بالدعوة إلى الجهاد للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما يزال يذم الدنيا والتعلق بها .

وهؤلاء القصاص الرسميون كان يقابلهم قصاص من الناسكين العابدين من مثل الأسود بن سريع ، وهو أول من قَصَّ بالبصرة[٤] ومثل زيد بن صوحان فى الكوفة[٥] وعبيد بن عمير فى المدينة [٦] ، وكان عبد الله بن عمر يحضر قصصه ووعظه ، ومنهم إبراهيم التيمى وكان الناس ينتفضون أمامه انتفاض الطير [٧] ، وسعيد بن جبير ، وكان يقص كل يوم مرتين بعد الفجر وبعد العصر [٨] ، وذَرّ بن عبد الله وكان من أبلغ الناس فى القصص[٩] ، ومسلم ابن جندب قاصّ مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم [١٠] ، ومطرّف بن عبد الله الشِّخِّير [١١] ، ويزيد بن أبان الرقاشى ، وكان قاصًّا مجيداً ، ومن قوله [١٢] :

« ليتنا لم نُخْلق ، وليتنا إذ خُلقنا لم نَعْصِ ، وليتنا إذ عصينا لم نمت ، وليتنا إذ متنا لم نُبعث ، وليتنا إذ بُعثنا لم نحاسَب ، وليتنا إذ حُوسبنا لم نعذّب ، وليتنا إذ عُذِّبنا لم نخلَّد » .

---

(١) أسد الغابة ٥/٢١٦ .
(٢) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٠٤ فى الهامش وخطط المقريزى (طبعة بولاق) ٢/٢٥٣
(٣) الولاة والقضاة ص ٣١٧ .
(٤) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٨ .
(٥) ابن سعد ٦/٨٤ .
(٦) ابن سعد ٥/٣٤١ والبيان والتبيين ١/٣٦٧ .
(٧) طبقات ابن سعد ٦/١٩٩ .
(٨) ابن سعد ٦/١٨٠ .
(٩) انظر العقد الفريد ٣/١٩٨ وعيون الأخبار ٢/٢٩٨ .
(١٠) البيان والتبيين ١/٣٦٧ .
(١١) نفس المصدر ١/٣٦٧ وصفة الصفوة ٣/١٤٤ وعيون الأخبار ٢/٢٨٩ .
(١٢) البيان والتبيين ١/٢٦٢ .

وهو عم الفضل بن عيسى القصّاص المشهور[١] ، ومن كبار القُصاص مالك بن دينار ، وكان يقول فى قصصه : « ما أشد فطامَ الكبير »[٢] . ومن القصاص أيضاً وهب[٣] بن منبّه .

وكان هؤلاء القصاص يمزجون قَصصَهم بالحديث عن الرسل والأنبياء والأمم الدائرة ، كما كانوا يمزجونه بآى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول عليه السلام . وكان بجانبهم كثير من الزهاد الوعاظ مثل رجاء[٤] بن حَيْوة والأوزاعى[٥] فى الشام وسعيد[٦] بن المسيب وأبى حازم[٧] الأعرج سلمة بن دينار فى المدينة . وعبد الله بن عمرو بن العاص فى مصر[٨] وكان العراق يكتظ بهم ، ومنهم ابن شُبرمُة[٩] وأيوب السِّختيانى[١٠] ومؤرِّق العجلى ، وكان يقول : « ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلّ على ربه »[١١] . ومنهم بكر بن عبد الله المزنى القائل : « أطفئوا نار الغضب بذكر جهنم »[١٢] والشَّعْبى[١٣] ومحمد بن واسع الأزدى ، وكان يقول : « يعجبنى أن يصبح الرجل وليس له غَدَاء ، ويمسى وليس له عَشاء ، وهو مع ذلك راضٍ عن الله »[١٤] . ومن الوعاظ المشهورين محمد بن كعب القرظى واعظ عمر بن عبد العزيز[١٥] ومالك بن دينار[١٦] والحسن البصرى هو أكبر وعاظ العصر وقصاصيه ، وكان الوعظ عليه أغلب ، وله مواعظ كثيرة تدور فى البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد ، وقد أفرد له ابن الجوزى

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٩٠ ، ٣٠٦–٣٠٨ وانظر الحيوان ٧/٢٠٤ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٢٠ وصفة الصفوة ٣/١٩٧ وما بعدها .
(٣) انظر بعض قصصه الوعظى فى عيون الأخبار ٢/٢٧٢–٢٧٦ ، ٢/٢٨ – ٢٨٣ ، ٢/٣٢٨ .
(٤) انظر صفة الصفوة ٤/١٨٦ .
(٥) صفة الصفوة ٤/٢٢٨ .
(٦) صفة الصفوة ٢/٤٤ .
(٧) عيون الأخبار ٢/٢٨٦ ، ٢/٣٣٠ والبيان والتبيين ٣/١٤٢ والعقد الفريد ٣/١٦٣ .
(٨) عيون الأخبار ٢/٢٩٤ .
(٩) البيان والتبيين ١/٣٣٦ والعقد الفريد ٣/١٥٠ ، ٣/١٨٣ .
(١٠) انظر صفة الصفوة ٣/٢١٢ .
(١١) البيان والتبيين ٢/١٩٨ .
(١٢) نفس المصدر ٣/١٤١ .
(١٣) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة ٣/٤٠ .
(١٤) العقد الفريد ٣/١٧٠ .
(١٥) البيان والتبيين ٣/١٤٣ .
(١٦) عيون الأخبار ١/٥٤ .

كتاباً ساق فيه وعظاً كثيراً ، وهو لا يبلغ من الثقة به مبلغ المصادر السابقة . ونراه فى وعظه دائم التذكير بالبعث ويوم الحساب مكثراً من الحض على التقوى والعمل الصالح الذى يبقى . وهو يعرض ذلك فى صورة من الخوف الشديد ، الخوف من الجحيم ، حتى لكأنه يراها بين عينيه ، وكأن الناس واقفون على شفيرها ، وهو يدعوهم أن يبتعدوا عنها مخافة أن يهووا فيها وهم لا يشعرون . وفى أثناء ذلك يحثهم على التحلى بالفضائل فاتحاً عليهم من جهة أبواب النار ومن جهة ثانية أبواب الرجاء بل أبواب المحبة الإلهية . ونراه يغترف فى مواعظه اغترافاً من القرآن الكريم وآيه ، فهو المنبع الذى يستمد منه وعظه وخوفه ورجاءه وحزنه العميق ، ولعله من أجل ذلك كان يقول : « والله يا ابن آدم لئن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولنّ فى الدنيا حزنك وليشتدن فى الدنيا خوفك وليكثرن فى الدنيا بكاؤك »[١] .

وعلى هذا النهج نفسه نقرأ مواعظ الوعاظ من حوله التى تتناثر فى الكتب الأدبية الآنفة الذكر ، وكانوا كثيراً ما يلمون بمجالس الخلفاء والولاة فيعظونهم ويبكونهم ، ويُحدثنا الرواة أن خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى الرقاشى وواصل بن عطاء تباروا فى الوعظ بمجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز حين ولى العراق ، وكان ذلك فى سنة ١٢٨ للهجرة ، فبزّهم واصل لطول خطبته ولأنه جانب فيها الكلمات ذات الراء ، للثغة كانت له فيها ، فكان يتحاشاها فى منطقه[٢] .

وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبة هما اللذان يقول فيهما الجاحظ : « ما علمت أنه كان فى الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة ، للذى يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهم »[٣] ويقول فى خالد : « ومن الخطباء المشهورين فى العوام والمقدّمين فى الخواص خالد بن صفوان . . ولكلامه كتاب يدور فى أيدى الوراقين »[٤] وكان الفضل بن عيسى

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم (طبعة الخانجى) ٢/١٣٣ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٤ .
(٣) نفس المصدر ١/٣١٧ .
(٤) نفس المصدر ١/٣٣٩ – ٣٤٠ .

الرقاشى من أخطب الناس وكان متكلماً ، وكان قاصًّا مجيداً ، وكان يجلس إليه عمرو بن عبيد وكثير من الفقهاء [١] ولم يكن عمرو بن عبيد يقل عنه بلاغة وبياناً ، أما واصل فلم يكن أبين ولا أجود لساناً منه ، وكان يلثغ فى الراء ، فرام إسقاطها من كلامه ، فلم يزل يكابد ذلك ويناضله ويساجله ، حتى تخلص من تلك الهجنة ، وانتظم له ما حاول ، حتى فى محاجة الخصوم وفى الكلام البديه المرتجل . ويعلل الجاحظ لذلك بأنه « كان داعية مقالة ورئيس نحلة وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لابد له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب وتُسْتَنى به الأعناق وتزيَّن به المعانى»[٢] فما زال يمرن نفسه على تفادى الكلمات ذات الراء ، حتى تأتى له ذلك واتسق له ما أراد .

ويقول الجاحظ إن واصلا كان داعية مقالة ورئيس نحلة ، والمقالة التى يريدها هى مقالة الاعتزال وهى نفسها النحلة ، ويحدثنا صفوان الأنصارى فى قصيدة مدحه بها وأنشدها الجاحظ[٣] أنه كان له دعاة خطباء يطوفون بأركان الأرض حتى يبلغوا الصين شرقاً وبلاد البربر غرباً ، ويُشيد ببيانهم وفصاحتهم وما أوتوا من اللسن وبراعة القول وقوة الحجة .

ويلفتنا الجاحظ إلى ما كان ينهض به واصل من الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، فقد كان يناظر أصحاب الديانات ، وكان يناظر أصحاب النحل من جماعة المسلمين ، ومن يقرأ فى أخبار هذا العصر يعرف أن المناظرات كانت مشتعلة بين الفرق ، اشتعلت أولا بين الفرق السياسية ، بين فرق الخوارج نفسها ثم بينهم وبين الشيعة ومن يميلون إلى طاعة أولى الأمر من الأمويين ، ثم اشتعلت بين أرباب الفرق الدينية التى كانت تبحث فى العقيدة والإيمان

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .
(٢) نفس المصدر ١/١٤ .
(٣) نفس المصدر ١/٢٥ .

وصفات الله ، فكان هناك القدرية الذين قالوا بحرية الإرادة وعلى رأسهم الحسن البصرى ، وكان هناك الجبرية الذين يقولون بتعطيل إرادة الإنسان وأنه مجبر لا حول له على ما يأتى من الأمر ولا قوة ، وكان هناك المرجئة الذين يفصلون بين الإيمان والعمل ولا يحكمون على مسلم فى أعماله ، بل يفوّضون الحكم إلى ربهم . واحتدم الجدال بين هذه الفرق ، كما احتدم بين الفقهاء فى اجتهادهم ومدى أخذهم بالقياس ، فكان الفقهاء يتناقشون ، وكان المتكلمون من أصحاب الفرق الدينية يتجادلون كما كان الخوارج والشيعة والأمويون يتحاورون ، كل يدافع عن رأيه ، ويحاول أن يقنع به خصمه أو خصومه ، وقد وصلتنا أخبار كثيرة عن تلك المحاورات والمجادلات والمناقشات ، فهم يروون أن الفقهاء كانوا يتناقشون فى مجلس الشعبى[١] ، وأن سليمان بن عبد الملك عقد مناظرة بين قتادة والزهرى ، فغلب الأول[٢] ، كما غلب إياس بن معاوية عبد الله بن شبرمة فى مناظرة طويلة ، تناولت اثنين وسبعين سؤالا[٣] . وكثيراً ما كان الخوارج يتناظرون مع خصومهم فى نظريّهم السياسية وأمور الدين[٤] ، وكذلك كان يصنع صنيعهم الشيعة ، وخاصة مع المرجئة[٥] ، وكانت المناظرات بين المرجئة والجبرية والقدرية مشتعلة فى مجالس الوعاظ ، بل لقد وصل شررها إلى مجالس الخلفاء ، إذ يُرْوَى أن عون بن عبد الله وموسى بن كثير وعمر بن حمزة وفدوا على عمر بن عبد العزيز وناظروه فى الإرجاء[٦] ، كما يروى أنه ناظر غيلان وصالح بن سويد فى القدر[٧] وكذلك يروى أن الأوزاعى وغيلان تناقشا فيه أيضاً أمام هشام بن عبد الملك[٨] وقد احتفظ المرتضى فى أماليه بمناظرة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد فى مرتكب الكبيرة أمام الحسن البصرى[٩] ، وكان

---

(١) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٤٣ .
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .
(٤) انظر مناظرتهم مع ابن عباس أول خروجهم ومع ابن الزبير ومع عمر بن عبد العزيز فى العقد الفريد ٢/٣٨٨ — ٤٠٣.
(٥) ابن سعد ٦/١٩٢ والبيان والتبيين ٣/٣٥٠ .
(٦) ابن سعد ٦/٢١٨ .
(٧) سرح العيون لابن نباتة ص ١٨٤ .
(٨) العقد الفريد ٢/٣٧٩ .
(٩) أمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/١٦٥

الخوارج يكفرونه ، بينما كان الحسن يدعوه مؤمناً فاسقاً ، وكان واصل يرى أنه فى منزلة بين المنزلتين ، وتناظر هو وعمرو بن عبيد فى تلك المشكلة واستطاع أن يقنعه بوجهة نظره .

ومن يرجع إلى تلك المناظرة يلاحظ أنها تبدو فى أولها تطبيقاً لأشكال القياس المنطقى ، وهى كذلك فى أثنائها وفى خاتمتها تستعين بالمنطق . ومما لا ريب فيه أن نفس الفكرة التى انتهى إليها واصل ، وهى أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين منزلتى المؤمن والكافر فكرة دقيقة ، لا يصل إليها إلا عقل دُعم بالثقافة ، وتعود النظر العميق والنفوذ إلى دقائق الأفكار والمعانى .

وطبيعى أن نجد الجاحظ مفتوناً أمام قدرة هؤلاء الخطباء الدينيين ، فقد أشاد بهم فى كل موضع من كتابه البيان والتبيين ، وتحدث عن تصرفهم فى الألفاظ والأساليب وكيف صفّوها ورقّوها ونخلوها نخلا ، حتى لا ينطقوا إلا بلُبِّ اللُّبِّ ، وإلا بما عليه حلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة .

٤

الصنعة فى الخطابة الأموية

رأينا الخطابة تزدهر ازدهاراً رائعاً فى العصر الأموى ، وقد صاحب هذا الازدهار عناية واسعة من الخطباء على اختلاف أغراضهم بإحكام خطابتهم عن طريق البيان التام والحجة البالغة والألفاظ المونقة ، ولا غرابة فى ذلك فإنهم إنما كانوا يريدون بخطبهم فى أكثر أحوالها إقناع الناس وإسكات الخصوم واستمالة القلوب ، حتى يصنع فيها صنيع الغيث فى التربة الكريمة .

وإذا رجعنا نتصفح آثار الخطباء السياسيين وجدنا خطباء كل حزب يحاولون أن يحققوا لخطبهم كل ما يمكن من آلات البيان والبلاغة ، كل بحسب

طاقته ومواهبه . ونعرض فى إجمال لطائفة من هؤلاء الخطباء ، هم زياد والحجاج من خطباء الحزب الأموى وقَطرى بن الفُجاءة من حزب الخوارج والمختار الثقفى من حزب الشيعة ، أما زياد فكان حسن الألفاظ جيد المعانى ، كأنما أوتى فَصْل الخطاب ، وفيه يقول الشعبى : « ما سمعت متكلماً على مِنْبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسىء إلا زياداً ، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً »[1] ولعل أشهر خطبة أُثرت عنه هى خطبته الملقبة بالبَتْراء ، وإنما سميت بذلك « لأن خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين بإحسان ما زالوا يسمُّون الخطبة التى لم يبتدئ صاحبها بالتحميد ، ويستفتح كلامه بالتمجيد : البتراء ، ويسمون التى لم توشَّح بالقرآن وتزيَّن بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم : الشوهاء »[2] .

ومن يرجع إلى هذه الخطبة[3] يلاحظ أن زياداً عُنى بتأليفها عناية شديدة ، فهى مقسمة إلى فقر ، إذ يستهلها ببيان ما انغمس فيه أهل البصرة من الغى والضلال والفسق والفساد منحرفين عن هدى الإسلام والقرآن الكريم . ثم يبين لهم سياسته التى سيأخذهم بها وأنها لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، ثم يأخذ فى إنذراهم وبيان العقوبات التى سينزلها على الجانين منهم ومن يعيثون فساداً فى الأرض ، ويخرج من ذلك إلى بيان حق أئمتهم عليهم من الطاعة ولزوم الجماعة ويقول إنهم يسوسونهم بسلطان يستمدونه من الله ، فهم ساستهم المؤدبون وكَهْفهم الذى إليه يأوون ، ويختمها بالوعيد الشديد يشوبه بالترغيب .

وبون بعيد بين هذه الخطبة وخطب الجاهليين ؛ فقد كانت الأخيرة أمثالا وحكماً ، ولما جاء الإسلام أصبح للخطابة موضوع دينى واضح ، ثم أخذت تتسع منذ الرسول عليه السلام للأحداث ، ولكنها لم تصبح خطابة زمنية على هذا النحو الذى نجده فى «البتراء» ، والذى أصبحت فيه الخطبة تعرض لسياسة الحكم

---

(١) البيان والتبيين ٢/٦٥ .

(٢) نفس المصدر ٢/٦ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٦٢ وانظر عيون الأخبار ٢/٢٤١ ، ٢٤٣ حيث أوردها ابن قتيبة برواية أخرى والعقد الفريد ٤/١١٠ .

وتدعو لبنى أمية وتؤكد حقهم فى الخلافة بمثل قوله : « أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذى خوّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا » وكأنه يقرر هنا نظرية التفويض الإلهى التى عرفها الفرس قبل الإسلام ، فبنو أمية وولاتهم مثل زياد يسوسون الناس بتفويض من الله ، وليس لهم أن يعارضوا وأن ينقضوا هذا التفويض أو تلك السياسة .

والخطبة بدون شك صحيحة النسبة إلى زياد ، فهى تصور سياسته التى تحدثنا عنها كتب التاريخ والتى أجملها فى قوله : « لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف » ثم هى تصور شدته على الجانين والبغاة ومن كانت تحدثهم نفوسهم بالخروج على بنى أمية . وقد بناها جميعها من ألفاظ جزلة مختارة ، ليس فيها غريب مستكره ولا ساقط رديء ، وإنما فيها القوة والمتانة ، وفيها ضروب من الصور البيانية ، وبعبارة أخرى من التشبيهات والاستعارات ، غير أنه لا يعمد فيها إلى السجع ، آخذاً بسنة الخلفاء الراشدين فى خطابتهم . وهى محكمة التنسيق كل فقرة تسلم إلى أختها ، والأفكار تتسلسل فى نظام ، مما يدل على أنه لم يكن ذا عقل فطرى بسيط . فعقله مدعم بالفكر الجديد وهو الفكر الذى أخذ يستسيغ ما لدى الأجانب من نظرية التفويض الإلهى وغيرها ، ولكن دون أن يذوب فيهم ، ودون أن ينسى شخصيته العربية وأساليب قومه المحكم القائم على استخدام اللفظ المصقول الرصين ، الذى يروعنا برونقه وسلاسة نظمه ووضوح دلالته .

ولم يكن الحجاج يقل عن زياد بياناً وإعراباً عما يختلج فى صدره ، ولعل أشهر خطبه تلك التى خطبها فى الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك[1] . حدّث معاصروه أنه دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/٣٠٧ وعيون الأخبار ٢/٢٤٣ والعقد الفريد ٤/١١٩ وما بعدها .

فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر وهو ملثم بعمامة خزّ حمراء ، حتى إذا اجتمع الناس فى المسجد قام فكشف عن وجهه ، ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنـــايا   متى أضع العمامة تعرفونى(١)

أما والله إنى لأحتمل الشرَّ بحمْله .. وإنى لأرى رءوساً قد أينعتْ وحان قِطافُها وإنى لصاحبها ، وإنى لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحَى ؛ ثم أخذ ينشد أبياتاً تنذر بما سيأخذهم به من عنف ، فهم كما يقول أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ، وقد نثر عبد الملك جعبة سهامه فوجده أمرَّها عوداً ، فرماهم به ، ويردد وعيده لهم وتهديده من مثل قوله : « أما والله لألحَونَّكم لَحْوَ العَصا(٢) ، ولأعصبَنَّكم عَصْبَ السَّلَمة(٣) ، ولأضربنَّكم ضرب غرائب الإبل »(٤) وقوله : « أما والله لتستقيمُنَّ على طريق الحق أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شغلا فى جسده » .

والخطبة سياسية خالصة ، فهى ذات موضوع زمنى واضح ، وهى تصور سياسة الحجاج التى اشتهر بها فى كتب التاريخ والتى كانت تقوم على العنف الشديد فى غير لين ، ولعل ذلك ما أراده الحسن البصرى حين قال فيه وفى زياد : « تشبَّه زياد بعمر بن الخطاب فأفرط ، وتشبَّه الحجاج بزياد فأهلك الناس »(٥) .

وعلى نحو ما تصور الخطبة سياسة الحجاج تصور فصاحته وبلاغته وحفظه للشعر الغريب ، إذ اتخذه مقدمة لكلامه ، وكأنما يجعله فاتحة موسيقية له وهى فاتحة يتبدَّى فيها ، ويطلب التشبه بالبدو لا فى لغته فحسب ،

---

(١) ابن جلا : كناية عن أنه لا يخفى مكانه ، والثنايا : الشعاب فى الجبال .

(٢) لحا العصا والشجرة لحوا قشرها .

(٣) السلمة : واحدة السلم ، شجر ذو شوك ، وكانوا يعصبون أغصانه ويشدونها بعضها إلى بعض ، ثم يخبطونها بالعصى ، فيتناثر ورقها للماشية .

(٤) كانت الإبل الغريبة إذا وردت الماء على إبل أخرى ضربت لتبتعد عنها ، حتى ترتوى .

(٥) البيان والتبيين ٢/٦٦ .

بل أيضاً فى ثيابه وملبسه[١] ، حتى يغرب على السامعين ويروعهم . ولم يكتف بهذا الضرب من الإغراب ، فقد عمد إلى طائفة من الصور الغريبة ، وهى تتراكم فى الخطبة تراكماً شديداً ، كما تتراكم فى خطبه الأخرى[٢] . ولعل مما يتصل بميله إلى الإغراب والتهويل فى منطقه ما رواه المبرد من أنه « كان إذا صعد المنبر تكلم رويداً ، فلا يكاد يُسْمَع ، ثم يتزيَّد فى الكلام حتى يخرج يده من مُطْرفه[٣] ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من فى المسجد »[٤]. ومعنى ذلك أنه كان فى مظهره أثناء خطابته وفى صوته وفى لفظه وما يحوى من شعر وصور نادرة يريد التهويل على السامعين ويحاول أن يحكم صنعته فى الخطابة من جميع أطرافها ، حتى فى إشارة اليد وفى الهمس بصوته والجهر به حتى يخلب القلوب . على أننا نلاحظ أنه كان يتحامى السجع مثله مثل زياد ، لكنه بعد ذلك كان يعنى باختيار ألفاظه ، ملتمساً منها ما ليس متوعِّراً وحشيًّا ولا ساقطاً سوقيًّا . وهو حقا يعد فى الذروة من البلاغة لعصره ، حتى ليقول عنه مالك بن دينار : « ربما سمعت الحجاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع فى نفسى أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج »[٥].

ومما لا شك فيه أنه يتفوق على زياد فى ابتكار الصور والتشبيهات والاستعارات ، ولكن زياداً يتفوق عليه فى بناء خطبه وإحكام تأليفها ، بحيث تتتابع فى فقر وأجزاء متسلسلة . وليس معنى ذلك أن الحجاج لم يكن يطيل خطبه ، فقد كان كثيراً ما يطنب فى خطابته ويسهب إسهاباً شديداً ، وخاصة فى مواعظه الدينية[٦] وقد بقى له منها قطع تدور فى كتب الأدب من مثل : « اللهم أرنى الهدى هُدًى فأتبعه ، وأرنى الغىَّ غيًّا فأجتنبه ، ولا تَكِلْنى إلى نفسى فأضِلَّ ضلالا بعيداً »[٧] ومثل : « إنا والله ما خُلقنا للفناء ، وإنما خلقنا للبقاء ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/٣٠٨ وعيون الأخبار ٢/٢٤٣ وقارن ١/١٦٩ .

(٢) انظر البيان والتبيين ٢/١٣٨ والعقد الفريد ٤/١١٩ وما بعدها .

(٣) المطرف : الثوب .

(٤) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ١٧٣

(٥) البيان والتبيين ١/٣٩٤ ، ٢/٢٦٨ .

(٦) نفس المصدر ٢/٢٩٨ .

(٧) البيان والتبيين ٢/١٣٧ والعقد الفريد ٤/١١٥ .

وإنما ننتقل من دار إلى دار »[١] وكان الحسن البصرى يقول فيه « يعظ عظة الأزارقة ويبطش بطش الجبارين[٢] » ويُرْوى أنه قال : « لقد وقَذَتْنى كلمة سمعتها من الحجاج ، سمعته يقول على هذه الأعواد : إن امرأ ذهبت ساعةٌ من عمره فى غير ما خُلق له لخليقٌ أن تطول عليها حسرته »[٣] .

ومرَّ بنا أنه كان للخوارج خطباء كثيرون مفوَّهون ، وكانوا يعنون عناية شديدة بإعداد كلامهم ، حتى يجذبوا القلوب إليهم ، ولعل ذلك ما جعل عبيد الله بن زياد يقول فيهم : « إن كلامهم أسرع إلى القلوب من النار إلى الهشيم » وروى المبرد أن عبد الملك بن مروان أُتِىَ برجل منهم ، فجعل يبسط له من قولهم ويزيِّن له من مذهبهم بلسان طَلْق وألفاظ مبيِّنة ومعان واضحة ، فقال عبد الملك : « لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خُلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعتُ إلى ما ثبَّت الله علىَّ من الحجة وقرر فى قلبى من الحق »[٤] وفى إحسانهم لخطابتهم يقول عبيدة بن هلال[٥] :

أدباءُ إمـــا جئتهم خطبـــاءُ ضُمَنَاء كلِّ كتيبةٍ جرَّارِ[٦]

وكانوا يمزجون خطابتهم السياسية بالدعوة إلى الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة وما عند الله من الثواب ، وقد يثنون على أبى بكر وعمر ، ثم يقدحون فى عثمان ومن جاءوا بعده ، ويحثون على الجهاد ، معلنين أنهم على الحق ، أما جماعة المسلمين فاتبعت أهواءها وجارت عن الطريق القاصد . ومن خير ما يصور ذلك خطبة أبى حمزة الخارجى فى مكة[٧] ، وفيها يصف شباب الخوارج هذا الوصف الرائع :

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٦٧ وعيون الأخبار ٢/٢٥١ .

(٢) البيان والتبيين ٣/١٦٤ .

(٣) البيان والتبيين ٢/١٩٣ وقذتنى : أفزعتنى .

(٤) الكامل للمبرد ص ٥٧٣ .

(٥) نفس المصدر ص ٧٠١ وانظر البيان والتبيين ١/٤٠٦ والحيوان للجاحظ ٦/٤٢٣ .

(٦) ضمناء : كفلاء .

(٧) البيان والتبيين ٢/١٢٢ وعيون الأخبار ٢/٢٤٩ والعقد الفريد ٤/١٤٤ والأغانى ٢٠/١٠٤ .

« شبابٌ والله مكتهلون فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينُهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر[١] ، ينظر الله إليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه ، موصولٌ كلالهم بكلالهم : كلال الليل بكلال النهار . . حتى إذ رأوا السِّهام قد فُوِّقت[٢] والرماح قد أُشْرعت والسيوف قد انتُضِيَتْ ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشاب منهم قُدُماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضَّبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعتْ إليه سباعُ الأرض ، وانحطَّت عليه طير السماء . فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كَفٍّ زالت عن معْصَمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله » .

وواضح أن هذا الوصف يعتمد فى جماله على صدق العاطفة وحرارتها ، وقوة العقيدة ومتانتها ، إذ يمثل صاحبه مدى إيمان الخوارج بمذهبهم وكيف باعوا الحياة الدنيا بالآخرة ، حتى أصبح الاستشهاد أمنيتهم والتهافت على نيران الموت طَلِبَتَهم ، وهم لذلك يثورون ثورة جامحة ، يقدسون فيها عقيدتهم ويتفانون فى سبيلها صادرين فى ذلك عن روح تقوى مفرطة . ولعل ذلك ما جعلهم يكثرون من المواعظ الخالصة . وخير من يمثلهم فى ذلك قَطَرِيُّ بن الفُجاءة وله موعظة طويلة مشهورة وكلام كثير محفوظ[٣] ، ونسوق قطعة من موعظته ندل بها على مبلغ تجويده وتحبيره ، يقول[٤] :

« أما بعد فإنى أحذركم الدنيا فإنها حُلوة خَضِرة ، حُفَّت بالشهوات وراقت بالقليل وتحببت بالعاجلة وحَلِيت بالآمال وتزينت بالغرور . . مع أن امرأ لم يكن منها فى حَبْرة إلا أعقبتْه بعدها عَبرة ، ولم يلق من سَرَّائها بَطْناً إلا منحتْه

---

(١) أنضاء : مهزولون ، أطلاح : مكدودون .
(٢) فوقت : جعلت لها الأفواق ، وهى مواضع الأوتار فى السهام .
(٣) البيان والتبيين ١/٣٤١ – ٣٤٢ .
(٤) نفس المصدر ٢/١٢٦ وعيون الأخبار ٢/٢٥٠ والعقد الفريد ٤/١٤١ .

من ضرَّائها ظَهْراً، ولم تطُلَّه(١) غيْثة رُخاء إلا هطلت عليه مُزْنة بلاء، وحرًى إذا أصبحتْ له منتصرة، أن تمسى له خاذلة متنكرة، وإن جانبٌ منها اعذوْذَبَ واحلَوْلى، أمرَّ عليه منها جانبٌ وأوبى(٢)، وإن آتت امرأ من غضارتها ورفاهيتها نعماً، أرهقته من نوائبها نقماً، ولم يُمس امرؤ منها فى جنَاح أمْن إلا أصبح منها على قوادم(٣) خوف .. لا خير فى شىء من زادها إلا التقوى».

والقطعة – مثلها مثل الموعظة جميعها – تمتاز بأنها تتصل بنفس صاحبها، وكأنه سكب فيها روحه، فهو يعبر عن تقوى صادقة تسيل من قلبه ونفسه، وهو بعد ذلك دقيق فى اختيار لفظه، يعنى برصفه عناية أوسع من عناية أبى حمزة الشارى، إذ تنقلب عنايته فى أكثر الموعظة إلى ضرب من السجع الرشيق. وهذه العناية بالسجع إلى حد بعيد تضافرت معها عناية بالطباق والمقابلة وعناية أخرى بالصور والرسوم المتحركة، وهو يشبه الحجاج فى الجانب الأخير، غير أنه لا يكتفى به، بل يضيف إليه فنوناً من المقابلات وضروباً من الإيقاعات الصوتية، حتى يبلغ ما يريد من التأثير فى نفوس سامعيه.

ولم يكن الشيعة أقل من الخوارج وولاة بنى أمية احتفالا بخطابتهم، ويُؤثر عن على بن الحسين أنه قال: «لو كان الناس يعرفون جملة الحال فى فضل الاستبانة وجملة الحال فى صواب التبيين لأعربوا عن كل ما تخلَّج فى صدورهم ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم .. ولكنهم من بين مغمور بالجهل، ومفتون بالعجب، ومعدول بالهوى عن باب التثبت، ومصروف بسوء العادة عن فضل التعلم»(٤). وكان زيد ابنه جدلا لسناً يجتذب الناس بحلاوة لسانه وسهولة منطقه وعذوبته(٥)، مع قوة الحجج

(١) تطل: من الطل وهو المطر الخفيف.
(٢) أوبى: من الوباء.
(٣) القوادم: الريش فى مقدمة الجناح.
(٤) البيان والتبيين ٨٤/١ وزهر الآداب ٥٩/١.
(٥) البيان والتبيين ٥٨/١ وانظر زهر الآداب ٧٢/١.

وكثرتها ، ومع الجزالة والفخامة[١] ، ومن خطباء الشيعة وكبار دعاتهم فى هذا العصر المختار الثقفى ، وكان خارجياً ، ثم صار زبيرياً ، ثم صار رافضياً[٢] ، وقد ثار فى العراق ثورة عنيفة ، غير أن مصعب بن الزبير قضى عليه فى سنة ٦٧ للهجرة . وكان يذهب فى سيرته وخطابته مذهباً قريباً من مذهب الكهنة فى الجاهلية ، فكان يزعم لأصحابه أنه يوحى إليه ، وكان يتخذ السجع دلالة على هذا الوحى ، وفى ذلك يقول ابن قيس الرقيات :

والذى نغَّص ابنَ دومة ما تو حى الشياطينُ والسيوفُ ظِماءُ

وكان يتخذ لأنصاره كرسياً قديم العهد غطاه بالديباج، وكان يقول لهم : « إن محله فيكم محل السكينة فى بنى إسرائيل »[٣] وروى المبرد كثيراً من شعوذته وكيف كان يدعى أنه يُلْهَمُ ضرباً من السجع لأمور تكون ثم يحتال فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل. ومن يرجع إلى سجعه يجده يعتمد فيه على الأقسام والإبهام والإغراب على نحو ما كان يعتمد على ذلك الكهنة قديماً من مثل قوله[٤] :

« أما وربِّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه[٥] والقفار ، والملائكة الأبرار، والمصطَفَيْن الأخيار، لأقتلن كل جبَّار ، بكل لَدْنٍ خطَّار[٦]، أومهنَّد بتَّار[٧]، فى جموع من الأنصار، ليسوا بميل أغمار[٨]، ولا بعُزْلٍ[٩] أشرار. حتى إذا أقمت عمود الدين ، ورأبْت شعْب[١٠] صَدْع المسلمين ،

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٩ - ٣١٠ ، ١/٣٢٥ والعقد الفريد ٤/٣٢ .
(٢) الكامل للمبرد ص ٥٩٦ .
(٣) نفس المصدر والصفحة وانظر الحيوان للجاحظ ٢/٢٧١ .
(٤) الطبرى ، القسم الثانى ص ٥٣٦ .
(٥) المهامه : الفيافى والقفار .
(٦) لدن : الرمح القاطع للينه وحدته ، والخطار : الضارب .
(٧) مهند : السيف ، بتار : قاطع .
(٨) ميل : جمع أميل وهو الجبان أو من لا سلاح معه ، الأغمار : جمع غمر ، وهو ناقص التجربة .
(٩) عزل : جمع أعزل : وهو من ليس معه سلاح .
(١٠) شعب : ثلمة . ورأب الصدع : أصلحه .

وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر عليَّ زوالُ الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى » .

وكان المختار يكثر من هذه الأسجاع ويتشبه فيها بصنيع الكهان ، وهذا هو لَحْنُه الذى كان يردده فى خطبه التى رواها له المؤرخون ، وكان يوفِّر من غير شك فى أثناء ذلك لكلامه ضروباً مختلفة من التكلف حتى يحقق ما يريد من الإيهام البعيد .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء المحافل وجدناهم يحاولون جاهدين التأنق فى خطابتهم[1] ، وهذا طبيعى لأن خطابتهم محدودة ، إذ لا تتجاوز فى كثير منها كلمات معدودة ، وكانوا يلقونها بين أيدى الخلفاء والولاة ، فكانوا يطلبون فيها أن تروعهم وتستميل إليهم قلوبهم ، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يلتزمون فيها السجع حتى يستنموا لها كل حلية صوتية ممكنة . وأشهر خطباء المحافل فى هذا العصر ، كما أسلفنا ، الأحنف بن قيس زعيم تميم البصرة ، فقد كان يفد لقومه على معاوية ، فيلقى إليه بحاجاتهم فى عبارات مسجعة منمقة على شاكلة قوله[2] :

« يا أمير المؤمنين ! أهل البصرة عدد يسير ، وعظم كسير ، مع تتابع من المحُول ، واتصال من الذُّحول[3] ، فالمكثر فيها قد أطْرق[4] ، والمقلُّ قد أملق[5] ، وبلغ منه المخْنَق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنعش الفقير ، ويَجْبر الكسير ، ويسهِّل العسير ، ويأمر بالعطاء ، ليكشف البلاء ، ويزيل اللأواء[6] ، وإن السيد من يعم ولا يخصّ ويدعو الجفلى[7] ، ولا يدعو النَّقَرى[8] ، وإن أُحْسِن إليه شكر ، وإن أسيء إليه غفر ، ثم يكون من وراء

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٤ وما بعدها .
(٢) زهر الآداب للحصرى (طبعة المطبعة الرحمانية) ١/٤٦ .
(٣) الذحول : الثارات ، والمحول : الجدب .
(٤) أطرق : ضعف وهزل .
(٥) أملق : افتقر .
(٦) اللأواء : الشدة .
(٧) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة .
(٨) النقرى : الدعوة الخاصة ، دعوة الأفراد .

ذلك لرعيته عماداً يدفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم المعضلات » .

وليس الأحنف وحده الذى كان يسجع بين خطباء المحافل ، فقد كانت عامتهم تذهب هذا المذهب من التحبير وتنميق الكلام . واستمر ذلك سمتهم طوال عصر بنى أمية كما كان سمة أعراب البادية غالباً حين ينزحون من باديتهم إلى المدن ، فيتحدثون بين أيدى الخلفاء والولاة ، وقد فتح الجاحظ لهم فصلا فى بيانه استعرض فيه طائفة من أقوالهم[1] ، وهى جميعها تدخل فى هذا الأسلوب المسجع وما يُطْوَى فيه من جمال الصياغة ، ويعبر الجاحظ عن انبهاره إزاء ما يروى من كلام هؤلاء الأعراب ، فيقول : « ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا آنَقُ ولا ألذ فى الأسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء »[2] . ويقال إن خالد بن صفوان تكلم فى صلح بكلام لم يسمع الناس قبله مثله ، فإذا أعرابىٌّ فى بَتٍّ[3] ، ما فى رجليه حذاء ، فأجابه بكلام أروع من كلامه وأعجب[4] .

وقد خطا خطباء القصص والمواعظ بخطابتهم خطوات واسعة نحو الصقل والتجويد لأساليبهم وتلوين معانيهم وتنويعها وتفريعها فروعاً كثيرة . ولم يكن الوعاظ يخطبون وقوفاً إلا فى صلاة الجماعة والعيدين ، أما بعد ذلك فكان مثلهم مثل القصاص يخطبون غالباً وهم جالسون وحولهم الناس يتحلقون ، وهم يسوقون إليهم مواعظهم . فخطابتهم كخطابة القصّاص كانت فى الأغلب خطابة جالسة ، أو قل كانت أشبه بالمحاضرات والإملاءات . وليس هذا هو كل ما يفرق بين خطابتهم والخطابة السياسية ، فهناك فرق آخر مهم يتصل بجمهور المستمعين إلى الطرفين ، إذ كان خطباء السياسة يتجهون بخطابتهم إلى العرب وجيوشهم المقاتلة ، أما خطباء الوعظ والقصص فكانوا يخاطبون الهيئة الاجتماعية

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٨٤ وما بعدها وانظر ١/٢٩٧ وما بعدها ، ١/٤٠٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٤٥ .

(٣) البت : كساء غليظ .

(٤) البيان والتبيين ١/١٧٣ .

كلها على اختلاف طبقاتها من خاصة وعامة ومن عرب وموال . ولذلك هبطوا بأساليبهم قليلا عن مستوى أساليب الخطابة السياسية ، حتى تفهمهم جميع الطبقات ، وحتى لا يرتفعوا بكلامهم عن فئات العامة . ومع هذا الهبوط لم يخرجوا إلى كلام السوقة ، بل وازنوا موازنة دقيقة بين كلامهم ومستوى الفصاحة ، فأخلوه من الألفاظ الغريبة ، وفى الوقت نفسه لم يسقطوا به إلى ألفاظ مبتذلة . وألجأهم ضيق معانيهم إلى التنويع فيها والتفريع والتوليد ، كما ألجأهم إلى ضروب من الترداد والتكرار والترادف ، لم يلبثوا أن تحولوا بها إلى صورة من الأسلوب المزدوج ، الذى يقف فى منزلة وسطى بين أساوب السجع والأساوب المرسل . ولا نغلو إذا قلنا إنهم هم الذين هيئوا لبروز هذا الأسلوب الذى شاع فيما بعد بين الكتاب مثل عبد الحميد الكاتب والجاحظ ومن جرى مجراهما . ونراهم يستخدمون ضروباً من التصوير أو من التشبيهات والاستعارات ، وهم يستلهمون فى كثير من جوانبها آى الذكر الحكيم كما يستلهمونها فى أكثر معانيهم ، وقد جعلهم حديثهم عن الثواب والعقاب والجنة والنار والطاعة والعصيان والحياة والموت والإيمان والكفر أن يقيموا كلامهم على الطباق والمقابلة ، مثل قول الحسن البصرى : « بعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ، وإذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به ، الثَّواء هاهنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، فخذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها »[1] وقوله : « إن خوفك حتى تلقى الأمن خير من أمنك حتى تلقى الخوف »[2] .

والحسن البصرى خير من يصور أساوب الوعاظ المبنى على الازدواج واستخدام بعض الصور وتلوين الكلام بألوان الطباق والمقابلة ، مما يمثل تلك الصناعة المحكمة ، ويغلب الحزن على مواعظه كما يغلب ترداد معنى الخوف والرجاء ، ووصفه بعض معاصريه ، فقال : « كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه ، وكأنه إذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه ، وكان إذا

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٣٢ .

(٢) العقد الفريد ٣/١٧٨ وانظر ٣/٢١٤ .

ذُكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له »[١]. ويموج كتاب البيان والتبيين وكتاب عيون[٢] الأخبار والعقد[٣] الفريد بمواعظه ومواعظ معاصريه .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن هؤلاء الوعاظ هم الذين ألانوا أساليب اللغة العربية وحمّلوها من الطاقات ما تستطيع به التعبير عن المعانى الدقيقة ، وكانت كثرتهم من الأجانب ، وكانوا مثقفين ثقافة واسعة ، وكانوا أصحاب فطن بارعة ، ففتحوا أبواباً لا حصر لها من الجدال فى مسائل الدين والعقيدة ، وتحولوا بمعانيهم يفرّعون فيها ويولدون ويأتون بكل جديد مستطرف وبديع مستحسن .

وكان بين هؤلاء الوعاظ من بلغ من الحذق أن جعل مواعظه كلها سجعاً خالصاً كأسرة الرقاشيين ، وهى أسرة فارسية كانت تحترف القصص فى هذا العصر كما كانت تحترف السجع ، ويقال إنها كانت معروفة فى أمّها بالخطابة ، فلما دخلت فى الإسلام قامت فى لغتنا مقامها فى لغتها الأصلية ، وكأنما نزع أفرادها ذلك العرقُ القديم ، ومنها يزيد بن أبان الرقاشى وكان قاصًّا مجيداً وكان يتكلم فى مجلس الحسن البصرى ، وكان عابداً زاهداً ، وهو عم الفضل بن عيسى الرقاشى ، وفيه يقول الجاحظ : « كان الفضل سجّاعاً فى قصصه .. وهو الذى يقول : سَلِ الأرض فقل .. من شَقَّ أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجَنَى ثمارك ، فإن لم تُجبك حواراً أجابتك اعتباراً »[٤] وكان خالد بن صفوان التميمى يسجع كثيراً[٥] كما كان يسجع غيره من العرب ، ومعنى ذلك أن الرقاشيين لم يستحدثوا السجع فى وعظهم ، وإنما نسجوا فيه على منوال طائفة من فصحاء العرب وبلغائهم .

ومهما يكن فإن الخطباء الوعاظ والقصاص نموا التحبير البيانى ، وكثيراً ما يقف الجاحظ فى بيانه متعجباً من قدرتهم البلاغية ، وقد تعجّب طويلا

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٧١ .
(٢) انظر ٢/٣٤٤ وفى مواضع متفرقة .
(٣) انظر فهرس الأعلام الملحق بالكتاب .
(٤) انظر فى الفضل وأسرته البيان والتبيين ١/٣٠٦-٣٠٨ وراجع زهر الآداب ٣/٢٢٠
(٥) البيان والتبيين ٢/٩٣ ، ٣/١٦٤ .

من بلاغة واصل بن عطاء وكيف استطاع أن ينزع الراء من خُطبَه للثغته فيها على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

ولم يكن واصل وحده هو الذى أحرز هذا المقدار من البلاغة والبيان ، بل لقد أحرزه عامة القصاص والوعاظ ، وقد تحولوا يعلمون شباب البصرة والكوفة كيف يتفوقون فى الخطابة ، وكانوا يسألونهم أسئلة كثيرة عن أساليبها وألفاظها وكيف ينبغ الخطيب ، وما ينبغى أن يراعيه فى هيئته وإشاراته ومنطقه ، وكيف يقنع خصومه فى الجدال ويسكتهم ؟ ومتى يستحبُّ الإيجاز فى الخطبة ؟ ومتى يستحب الإطناب ؟ وكيف يلائم الخطيب بين ألفاظه ومعانيه ؟ وكيف يوازن بين كلامه وبين طبقات السامعين ؟ وكيف يجعل لكل طبقة كلاماً ولكل حالة مقاماً ؟ وكيف يقنع خصومه فى المناظرة ويلزمهم الحجة ؟

وهيأ ذلك كله لاستنباط طائفة من الوصايا البلاغية نجدها منثورة فى كتاب البيان والتبيين تجرى على ألسنة هؤلاء الوعاظ وخاصة من كانوا يقارعون الخصوم ويجادلونهم ، ونقصد المتكلمين الذين تناقشوا فى القدر والعقيدة طويلا ، والذين نصبوا أنفسهم للرد على خصوم الإسلام .

ولعل مما يدل على صحة ما نزعم من ذلك أن أقدم النصوص التى تتصل بماهية البلاغة تضاف إلى واعظ من هؤلاء الوعاظ المتكلمين وهو عمرو بن عبيد، فقد روى الجاحظ أنه قيل له ما البلاغة ؟ فقال لسائله[1] :

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصَّرك مواقع رشدك وعواقب غيِّك ، قال السائل : ليس هذا أريد .. قال عمرو : فكأنك إنما تريد تخير اللفظ فى حسن إفهام ؟ قال : نعم، قال : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المكلَّفين ، وتخفيف المئونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالألفاظ الحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة فى سرعة

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ وانظر العقد الفريد ٢/٢٦٠ وزهر الآداب ١/٩٤ .

استجابتهم ونَفْى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة ، على الكتاب والسنة كنتَ قد أُوتيتَ فصل الخطاب ، واستحققت على الله جزيل الثواب » .

وعلى هذا النحو كان الشباب يتعلمون على هؤلاء الوعاظ كيف يبلغون ما يريدون من حسن الإفهام ومن البيان والطلاقة ، وكيف يحصلون ذلك ويميزونه مع جمال المخارج والسلامة من التكلف ، وكان الوعاظ من جانبهم لا يزالون يقدمون لهم النصح والإرشاد ، وقد يدعونهم إلى المناظرة بين أيديهم طلباً لترويضهم وتمرينهم ، على نحو ما صنع الحسن البصرى بواصل وعمرو بن عبيد إذ دعاهما فى مجلسه للمناظرة فى مرتكب الكبيرة والوصف الذى يستحقه ، حتى يحذقوا الجدال ومناقشة الخصوم والاحتجاج عليهم . وإذا لم يدعوهم إلى الكلام بين أيديهم نثروا عليهم وصاياهم على نحو ما نجد فى وصية شبيب بن شيبة التى يذكر فيها أن الناس يعجبون بجودة الابتداء ، أما هو فيعجب بجودة الخاتمة ، ويقول إذا ابتُلى الخطيب بمقام لابد له فيه من الإطالة فإياه والإسهاب إلى درجة الخطل[1] . ويقول خالد بن صفوان : « اعلم — رحمك الله — أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان ، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجة »[2]

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور كيف ارتقت الخطابة فى بيئات الوعاظ والقصاص ، فقد أخذوا يتدارسونها ويبحثون فى أدواتها ووسائلها ، وانبعثوا يخطبون فى كل مناسبة ومقام ، موازنين بين معانيهم وألفاظهم ، وبين كلامهم ومن يخاطبونهم به من العامة والخاصة . وكان خطباء السياسة من حولهم لا يزالون يجوّدون فى خطابتهم ، وكذلك كان شأن خطباء المحافل ، حتى ليقولون إن شباب الكتاب فى دواوين الخلفاء كانوا يحضرون — إذا قدمت الوفود — لاستماع بلاغة خطبائهم[3] .

والحق أن هذه البيئات جميعاً أتاحت للخطابة فى هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، لعلها لم تعرفه فى أى عصر من العصور الإسلامية الوسيطة ، فقد

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٢ .
(٢) العقد الفريد ٢/٢٦١ .
(٣) العقد الفريد ٤/٤٤٩ .

تعاونت جهود خطباء السياسة والمحافل وتعاون معهم الوعاظ والمتكلمون على النهوض بها ، بل لقد نفذ الأخيرون إلى وضع قواعد وتعاليم فيها كانت مقدمة للأبحاث البلاغية التى عرفت فى العصر العباسى .

٥

الكتابة فى صدر الإسلام

اتخذ الإسلام الكتابة دعامة من دعائمه ، فقال جل شأنه فى أول آية نزلت على رسوله صلى الله عليه وسلم : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلم) وأقسم سبحانه وتعالى بالقلم فقال جلَّ وعز : (ن والقلم وما يسطرون) كما أقسم بالكتاب فقال : (والطور وكتاب مسطور فى رَقٍّ منشور) . وجاءت فى الذكر الحكيم كلمات اللَّوْح والقرطاس والصحف من مثل : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) ومثل : (ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) ومثل : (إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) .

وشجع الرسول عليه السلام على تعلم الكتابة بطرق مختلفة ، فمن ذلك أنه جعل فداء بعض أسرى قريش فى بدر ممن تعلموا الكتابة أن يعلموها عشرة من صبيان المدينة[1] . وبجانب ذلك نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو بعض أصحابه إلى تعلم اللغات الأجنبية ، ففى البخارى عن زيد بن ثابت : أُتى بى النبي صلى الله عليه وسلم حين مقدمه المدينة ، فقيل : هذا من بنى النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة (من القرآن الكريم) فقرأت عليه ، فأعجبه ذلك ، فقال : تعلَّمْ كتاب يهود ، فإنى ما آمنهم على كتابى ، ففعلت ، فما مضى

---

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ١٧٠ .

لى نصف شهر حتى حذقته ، فكنت أكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له »[١] . وقد حضّ القرآن على اتخاذ الكتابة فى المعاملات ، يقول جل شأنه : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَيْنٍ إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتبْ بينكم كاتب بالعدل ، ولا يَأبَ كاتبٌ أن يكتب كما علّمَه الله فليكتُبْ وليُمْلِلِ الذى عليه الحق) .

وكان للرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من الكُتّاب تخصصوا بكتابة الوحى ، وكان على رأس هذه الجماعة عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ، وكانا إذا غابا كتب له أبىّ بن كعب وزيد بن ثابت . وكان يكتب له بين يديه فى حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان . وكان المغيرة ابن شعبة والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس . وكان عبد الله بن الأرقم ابن عبد يغوث والعلاء بن عقبة الحضرمى يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياههم . وكان حنظلة بن الربيع ابن أخى أكثم بن صَيْفى خليفة كل كاتب من كُتّاب الرسول إذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب[٢] .

ونرى من ذلك أن الكتابة أخذت تستخدم استخداماً واسعاً لا فى كتابة القرآن الكريم فحسب ، بل فى كتابة كثير من شئون المسلمين ، وكان الرسول عليه السلام يكتب كثيراً من عهود الأمان ومن المعاهدات ، كما كان يكاتب الأمراء والملوك من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام ، وتزخر السيرة النبوية لابن هشام وكتب الحديث والتاريخ بهذه الكتب ، وقد جمعها محمد حميد الله الحيدر آبادى فى كتابه النفيس « مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » . وقدم لها بدراسة وقف فيها عند معيار الوضع والصحة ، وما دخلها من الانتحال . وقد يكون من صحيحها الذى سلم على الزمن كتابه[٣] صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود ممن كانوا بالمدينة حين نزوله

---

(١) فجر الإسلام ص ١٧١ .

(٢) انظر فى ذلك الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٢ .

(٣) انظر مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١ .

فيها وكذلك معاهدته التى كتبها بينه وبين قريش عام الحُدَيْبِيَة، وهى تمضى على هذه الصورة[١] :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلَ بن عمرو : اصطلحا على وضْع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكفّ بعضهم عن بعض . على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه. وأن بيننا عَيْبَة مكفوفة[٢] ، وأنه لا إسْلالَ ولا إغْلال[٣]. وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

وواضح أن الرسول عليه السلام لا يُعْنَى فى هذه المعاهدة بتحبير فنى ، بل هو يؤدى غرضاً سياسيًّا فى صورة موجزة ، وكذلك كان شأنه فى كتبه التى كان يرسلها إلى أمراء العرب ، ونسوق لذلك مثلا كتابه الذى أرسله إلى وائل ابن حُجْر الحضرمى وقومه إذ يقول عليه السلام[٤] :

« من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة[٥] من أهل حَضْرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فى التَّيْعة[٦] شاة، والتَّيْمَةُ[٧] لصاحبها، وفى السُّيوب[٨] الخُمس ، لاخِلاط[٩] ، ولا وِراط[١٠] ، ولا شِناق[١١] ، ولا شِغَار[١٢] ،

---

(١) نفس المصدر ص ١٣ وراجع الطبرى ، القسم الأول ص ١٥٤٦ .

(٢) العيبة : الحقيبة ، والعيبة المكفوفة هنا يراد بها الذمة التى لا تنكث .

(٣) إسلال : سرقة ، إغلال : خيانة .

(٤) انظر حميد الله ص ١٢٨ والبيان والتبيين ٢/٢٧ والعقد ٢/٤٨ .

(٥) الأقيال : ملوك الجنوب وأمراؤهم ، العباهلة : العظام الثابت ملكهم .

(٦) التيعة : الأربعون من الغنم ، وهو أقل ما تجب فيه الزكاة .

(٧) التيمة : الشاة الداجنة غير السائمة أو الراعية .

(٨) السيوب : جمع سيب ، وهو المال المدفون أو المعدن .

(٩) الخلاط : أن تخلط الغنم أو الإبل بغيرها لتمنع من الزكاة .

(١٠) الوراط : أن توضع الغنم أو الإبل بعيداً عن أعين من يجمعون الزكاة .

(١١) الشناق : الخلاط .

(١٢) الشغار : زواج فى الجاهلية أبطله الإسلام .

فمن أجْبى[١] فقد أرْبى[٢] . وكل مسكر حرام » .

والرسول صلى الله عليه وسلم لا يعمد فى هذا الكتاب إلى تزويق ، إنما يعمد إلى فكرته وتبليغ دعوة الإسلام ورسالته فى غير إسهاب ، وفى غير صنعة أو تكلف ، فكان كما قال جل شأنه : (قُل ما أسألكم عليه من أجْرٍ وما أنا من المتكلفين) فكان يقصد إلى غرضه بالحروف القليلة والكلمات اليسيرة .

وتبعه الخلفاء الراشدون يهتدون بهديه فى كتابتهم وما يعقدون من معاهدات[٣] ، فهم لا يقصدون إلى تنميق ، إنما يقصدون إلى إبلاغ أفكارهم فى عبارات واضحة الدلالة . وليس من ريب فى أننا لا نصل إلى عصر عمر حتى تكثر المكاتبات السياسية ، فهو يكاتب قواده وولاته ، وهم يكاتبونه كلما جَدَّت مشكلة ، وكان يكتب إليهم أحياناً فى سياستهم لمن يحكمونهم ، وكتابه إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ذائع مشهور[٤] .

ونظن ظنّاً أن عمر وغيره من الخلفاء الراشدين ، وولاتهم ، وقوادهم ، لم يقصدوا فى كتابتهم إلى أى ضرب من ضروب التزيين والتنميق ، فقد كان حسبهم أن يؤدوا أغراضهم فى لغة جزلة متينة ، وإن كان ذلك لم يمنع بعض المؤرخين والأدباء أن يدخلوا الزينة والتنميق على بعض ما رووه لهم . من ذلك الكتاب الذى ينسب إلى عمرو بن العاص أنه أرسله إلى عمر فى وصف مصر ، والذى يقول فيه : « مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر » إلى آخر ما فى هذا الكتاب من عبارات أنيقة[٥] ، فإنه واضح الانتحال على ابن العاص .

وينبغى أن نعرف أن المكاتبات فى صدر الإسلام لم تحفظ فى سجلات

---

(١) أجبى : من الإجباء وهو بيع الزرع قبل أن يبدو صلاحه .

(٢) أربى : من الربا .

(٣) انظر القسم الثانى من كتاب حميد الله .

(٤) البيان والتبيين ٢/٤٨ ، ٢٩٣ وعيون الأخبار ١/٦٦ .

(٥) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب) ١/٣٢ .

خاصة ، وكان ذلك سبباً فى أن تناولها غير مؤرخ وأديب بالتبديل والتحسين ، ومن ثم كان الكتاب الواحد يُرْوَى روايات مختلفة باختلاف الكتب التى ترويه ، وحسب ذوق الراوى وقدرته البيانية .

٦

الكتابة فى العصر الأموى

وإذا انتقلنا إلى عصر بنى أمية وجدنا الكتابة ترقى رقيًّا عظيماً ، فقد جدَّ كثير من المشكلات ، وتعقدت الحياة من جميع أطرافها المادية والسياسية والعقلية ، إذ تحضر العرب ، وأخذوا يستعيرون كثيراً من النظم الأجنبية ومواد الثقافات لدى الأمم المفتوحة .

ونستطيع أن نميز ثلاثة جداول مهمة كانت تمد الحياة العربية فى العصر الأموى ، وهى جدول جاهلى يتمثَّل فى الشعر والأيام وتقاليد الجاهليين ، وأقبل كثير من العلماء على هذا الجدول يعبّون منه ، مما هيأ لتسجيل الحياة الجاهلية ، وجدول إسلامى يتمثل فى تاريخ الإسلام وخطوبه وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته وأحاديثه وسيرة الخلفاء الراشدين وفتوحاتهم ، ثم ما كان من أحزاب سياسية وما لكل حزب من آراء فى السياسة والحكم ، وجدول أجنبى يتمثل فى معرفة شئون الأمم المفتوحة ونظمها السياسية والاجتماعية والاستعارة منها حسب الحاجة . ولعل أول ما كان من هذه الاستعارة اتخاذ عمر لديوان العطاء أو ديوان الجيش[1] ، وقد خلفه جيل كانت استعارته أقوى وأكبر ، ونستطيع أن نرمز لصنيع هذا الجيل بما كان من اتخاذ معاوية لدواوين الخراج والخاتم والرسائل[2] ، ثم بما كان من تأليف زياد بن أبيه لكتاب فى

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤ .

المثالب [١] . وكلما مضينا فى العصر اتسعت التأثرات بما لدى الأجانب ، فقد كان العرب ناشرين للدين الإسلامى ، وقد اتصلوا بيهود ومجوس ونصارى وحدثت بينهم وبين هؤلاء جميعاً أحاديث ومناقشات ومحاورات تسرب إليهم فى أثنائها كثير من الفكر الأجنبي وخاصة من شُعَب الفكر اليونانى فى الفلسفة والمنطق ، وقد أخذوا يقفون على طرق استغلال الأرض وغير ذلك من مسائل الحياة العملية ، وعاشوا فى القصور وقام الأجانب على خدمتهم وتهيئة حياتهم المادية ، واطلعوا على نظم التعليم عندهم وما أنشأوا من مدارس ، وطلب خالد ابن يزيد بن معاوية أن تترجَم كتُبٌ فى الكيمياء [٢] ، وأمر عمر بن عبد العزيز بترجمة كتيِّب فى الطب [٣] .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة نمت فى العصر الأموى نموًّا واسعاً ، فقد عرف العرب فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض فى موضوع من الموضوعات ، وقد ألفوا فعلا كتباً كثيرة ، بعضها دينى خالص يتصل بمسائل الفقه والتشريع الإسلامى ، بمن ذلك أننا نجد الرواة ينسبون إلى هشام بن عروة بن الزبير أنه قال : « أحرق أبى يوم الحَرَّة كتبَ فقه كانت له » [٤] ونعرف أن موقعة الحرة كانت لعهد يزيد بن معاوية ، وقد ترك زيد بن على مؤسس مذهب الزيدية مختصراً فى الفقه [٥] ، ومرَّ بنا أن المحدِّثين طوال القرن الأول للهجرة كانوا يختلفون فيما بينهم ، منهم من يكتفى برواية الحديث ومنهم من يدونه ، حتى إذا وصلنا إلى رأس المائة أمر عمر بن عبد العزيز بتدوينه تدويناً عامًّا ، ومن أوائل من بادروا إلى جمعه ابن شهاب الزهرى [٦] المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة .

وقد نشطت الكتابة التاريخية ، فكتب المؤرخون فى مغازى الرسول عليه

---

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة مصر) ص١٣١ .
(٢) الفهرست ص ٣٣٨ .
(٣) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) طبع ليبزج ص ٣٢٤ .
(٤) طبقات ابن سعد ٥/١٣٣ .
(٥) راجع كلمة فقه فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٦) الزرقانى على موطأ مالك (طبع المطبعة الخيرية) ١/١٠ .

السلام ، وعلى رأسهم أبان بن عثمان[١] وعروة بن الزبير ، وهو أول من صنف فى تلك المغازى[٢] ، ثم الزهرى[٣] ، وكلهم من المدينة ، وهذا طبيعى فهى دار النبوة ، وبيت السيرة الذكية . وقد أخذ بعض هؤلاء المؤرخين يتحدثون عن الخلفاء الراشدين والأمويين .

وبجانب مؤرخى السيرة النبوية نجد مؤرخين من اليمن يهتمون بتاريخ موطنهم ، وفى مقدمتهم عُبيد بن شَرِيَّة الجُرْهمى الذى وفد على معاوية وأدرك خلافة عبد الملك بن مروان ، وهو صاحب « كتاب الملوك وأخبار الماضين »[٤] ألفه لمعاوية ، وطبع حديثاً فى الهند باسم « أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » ومن يطلع عليه يجد الخرافة تغلب على أخباره . وتشتهر اليمن فى هذا العصر بقُصَّاصها مثل تميم الدارىّ ، وأشهرهم وهب بن منبِّه الذى توفى سنة ١١٤ للهجرة ، وقد كتب كثيراً عن عرب الجنوب كما كتب عن مغازى الرسول ، وأهم من ذلك أنه عُنى بجمع أخبار أهل الكتاب وما يتصل بها من الإسرائيليات[٥] ؛ وهو مثل عبيد فى ملء كتاباته التاريخية بالخرافات ، كما يلاحظ ذلك كل من يقرأ فى الكتاب المنسوب إليه المسمى « كتاب التيجان فى ملوك حمير » .

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى نجد العراق تُعنى بهذه المادة التاريخية جميعها ، كما تعنى بتاريخ القبائل الشمالية وأنسابها وأيامها ، وأيضاً فإنها عنيت بتاريخ الأحداث فى عصر على بن أبى طالب ثم فى عصر بنى أمية . وكان مما زاد فى هذه العناية وخاصة بتاريخ العرب فى الجاهلية وأيامهم وملوكهم وأمرائهم وشعرائهم وخطبائهم قيام علم اللغة وتوفر أصحابه على دراسة أحوال الجاهليين . ولا نلبث أن نجد مؤرخاً كبيراً هو أبو مخنف[٦] يعنى بتأليف

---

(١) انظر ترجمة أبان فى دائرة المعارف الإسلامية وطبقات ابن سعد ٥/١١٢ .

(٢) كشف الظنون (الطبعة القديمة) ٥/٦٤٦

(٣) انظر ترجمة الزهرى فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) الفهرست ص ١٣٢ .

(٥) كشف الظنون ٥/٤٠ .

(٦) راجع ترجمة أبى مخنف فى معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ٧/٤١ .

كتب كثيرة يقال إنها بلغت اثنين وثلاثين كتاباً ، وأكثرها يتحدث فيه عن أحداث القرن الأول للهجرة ، واحتفظ الطبرى بكثير مما كتبه فى تلك الأحداث.

ولعل من الطريف أن نلاحظ أن هذه النزعة لكتابة التاريخ عند العرب ظهرت فى ظروف مشبهة لظهورها عند اليونان ، فإن من المعروف أن اليونان لم يعنوا بكتابة تاريخهم إلا بعد حروبهم مع الفرس واتصالهم بالعالم الخارجى ، وكذلك كان الشأن عند العرب فإنهم لم يعنوا بكتابة تاريخهم إلا بعد حروبهم مع الأمم الأجنبية وفتوحهم . وينبغى أن نعرف أن هذا النثر التاريخى عند العرب نثر عربى خالص ، فهم لم يستعيروه من الأجانب ، بل مثلهم فيه مثل اليونان الأقدمين فى نثرهم ونشأته فى حجورهم .

وليس معنى ذلك أن الكتابة التاريخية عند العرب لم تتأثر بعناصر أجنبية فى هذا العصر المبكر ، بل لقد أخذت تتأثر بهذه العناصر كما مر بنا عند وهب بن منبه وأضرابه ممن كانوا يتحدثون عن الملوك الأوائل وعن قصص الأنبياء وأخبار شعوبهم ، غير أن هذه العناصر لم توجد هذه الكتابة من عدم ، بل لقد وقف تأثيرها عند تنميتها والتطور بها مع الزمن ، كان موضوعها فى كثير من جوانبها عربياً خالصاً يتصل بسيرة الرسول وأحداث الإسلام أو يتصل بأيام العرب فى الجاهلية وأخبار قبائلهم وملوكهم . وكلما تقدمنا فى الزمن اتسعت هذه العناصر الأجنبية ، فشملت تاريخ الفرس وتاريخ الأمم المفتوحة .

وإذا تركنا الكتابة التاريخية إلى الرسائل وجدناها مثل الخطابة التى عاصرتها ، فقد كانت هناك رسائل سياسية تصدر عن دواوين الخلفاء والولاة أو عن خصومهم ، ورسائل اجتماعية يتبادلها الناس فى أمور حياتهم الشخصية ، ورسائل دينية ، منها ما يأخذ شكل الموعظة ، ومنها ما يأخذ شكل الحوار والجدل ، حين يتعرض شخص للرد على صاحب نحلة من النحل .

وقد نهضت الرسائل السياسية فى هذا العصر نهضة واسعة ، وهى نهضة تُرَدُّ إلى سببين: أما السبب الأول فهو أن كثيراً ممن كانوا يكتبونها كانوا يُعَدُّون فى الذروة من الفصاحة والبيان لهذا العصر أمثال زياد والحجاج وقَطَرِىِّ بن

الفجاءة والمختار الثقفى ، وأما السبب الثانى فقيام ديوان الرسائل وظهور طبقة من الكتاب المحترفين فى هذا الديوان ، لا فى دواوين الخلفاء وحدهم ، بل أيضاً فى دواوين الولاة ، وكان قادة الجيوش أيضاً يتخذونهم ، ليراسلوا عنهم من يريدون مراسلته . ومعروف أن ديوان الخراج كان يقوم عليه فى أول الأمر كتاب من الأجانب ، يكتبون فيه بلغاتهم الأصلية ، حتى إذا كان عصر عبد الملك نُقل هذا الديوان إلى العربية ، فأصبح الشأن فيه كالشأن فى ديوان الرسائل يليه العرب ، ولم يلبث الأجانب أن سعوا إلى تعلم العربية وشاركوا فى ديوان الرسائل نفسه .

ويقدِّم لنا كتاب الوزراء والكُتَّاب للجهشيارى أثباتاً طويلة بأسماء من كانوا يلون الديوانين : ديوان الرسائل وديوان الخراج ، وهى أثبات تدل دلالة قاطعة على أن من نهضوا بالكتابة السياسية فى هذا العصر إنما هم العرب ، وظلوا على ذلك طويلا ، حتى أوشك القرن الأول للهجرة على الزوال ، فشاركهم الأجانب مشاركة بدت قاصرة فى أول الأمر ، حتى إذا كان عصر هشام ابن عبد الملك (١٠٤ — ١٢٤ هـ) وجدنا على ديوانه مولى كان يحسن اليونانية وينقل عنها بعض رسائل وهو سالم، الذى تخرج على يديه عبد الحميد الكاتب الفارسى الأصل .

ومعنى ذلك أن كتابة الرسائل السياسية الرسمية نشأت فى حِجْر العرب ، ونمت تحت أيديهم ؛ فقد أخذت فى الظهور منذ صدر الإسلام ومنذ أن جَدَّت تلك المشكلات التى اقتضت أن يكتب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه ، وبمضى الزمن أخذت مشاكل الدولة فى التعقد ، كما أخذ العقل العربى ينمو ويرقى ، فنمت ورقيت معه تلك الصناعة ، وتوفر عليها جماعة من بلغاء الخطباء كما توفرت عليها جماعة من الكتَّاب المحترفين الذين توظفهم الدولة للعناية بها ، وحقاً يقال إن العرب استعاروا نظم الدواوين من لدن الفرس[1] ،

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢ وما بعدها .

ولكن الفرس مثلهم مثل غيرهم من الموالى لم يوجدوا لهم هذا الفن من كتابة الرسائل السياسية ، إنما أوجدته حياتهم وضروراتها السياسية والإدارية . ومن هنا كنا نرفض رفضاً باتّاً رأى بعض المستشرقين الذين يزعمون أن العرب استعاروا كتابتهم السياسية الفنية أو نثرهم السياسى الفنى من لدن الفرس[١] ، فالعرب لم يستعيروا من الفرس ولا من غيرهم نثرهم كما أنهم لم يستعيروا منهم ولا من غيرهم شعرهم ، وكل ما يمكن أن يلاحَظ أنهم أخذوا مع الزمن يتأثرون فى نثرهم وشعرهم جميعاً بالأجانب من الفرس وغير الفرس ، وتمّ ذلك بحكم التطور واشتراك هؤلاء الأجانب معهم فى أدبهم ، وما كان من نقل ثقافاتهم إلى العربية .

ونحن لا نغلو هذا الغلو الذى جعل بعض المعاصرين يذهب إلى أن العرب عرفوا الكتابة الفنية أو النثر الفنى منذ العصر الجاهلى[٢] ، فما تحت أيدينا من وثائق ونصوص حسية لا يؤيد ذلك إلا إذا اعتمدنا على الفرض والظن ، والحق أن ما تحت أيدينا من النصوص الوثيقة يجعلنا نقف فى مرحلة وسطى بين الرأيين ، فلا نتأخر بنشأة الكتابة الفنية عند العرب إلى العصر العباسى عصر التأثر الواضح بالفرس ، ولا نتقدم بها إلى العصر الجاهلى ، بل نضعها فى مكانها الصحيح الذى تؤيده المستندات والوثائق ، وهو العصر الإسلامى ، حيث أخذت فى الظهور منذ صدره ، كما أخذت فى النمو والازدهار كلما تقدمنا مع الزمن . وإذا كان للفرس أو لغيرهم من الموالى فيها من فضل فهو فضل المشاركة فى النمو بها ، بالضبط على نحو ما صنعوا بالشعر فى العصر العباسى ، ولعل من المهم أن نعرف أن العرب لم يأخذوا عن الفرس فلسفة ولا نحتاً ولا تصويراً ولا شعراً ولا أى فن من الفنون .

وعلى نحو ما نشأت الكتابة السياسية الرسمية ونمت نشأت الكتابة الاجتماعية أو الشخصية وأخذت فى النمو منذ عصر الفتوح ، فإن تفرق العرب فى البلدان

---

(١) انظر النثر الفنى لزكى مبارك ١/٣٤ ، ٤٣/١ وراجع بحثاً لمرسيه نشره فى : Revue Africaine, Nos. 330, 331 (1er., 2me. trimestres, 1927).

(٢) النثر الفنى ١/٣٣ – ٤٣ .

الإسلامية دفعهم دفعاً إلى أن يتكاتبوا فى مهامهم وشئونهم الشخصية وفى التهانى والتعزية وفى العظة والعبرة[1] . ومن غير شك كثر ذلك مع مر الزمن ، وإن كانت الكتب الأدبية والتاريخية لم تعن بتلك المكاتبات قدر عنايتها بالوسائل السياسية ، لأنها فى الغالب لا يتعلق بها تاريخ ، وأيضاً فإن أصحابها لم يكونوا يقرءونها فى الناس ولا كانوا يسجلونها ، ومع ذلك نجد آثاراً منها ، يرجع بعضها إلى صدر الإسلام ، وبعض آخر يرجع إلى عصر بنى أمية ، وربما كان أبرز كتَّابها عبد الله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر .

أما الكتابة الدينية فقد أصابها ما أصاب الخطابة الدينية من الرقى والازدهار ، لسبب بسيط وهو أن كُتَّابها كانوا هم أنفسهم الذين مرنوا على الخطابة والجدال والحوار فى المسائل الدينية والمذهبية ، فأضفوا على كتابتهم نفس الصورة البيانية التى أضفوها على خطابتهم ، مما نجده ماثلا فى كتابات الحسن البصرى وغَيلان الدمشقى وغيرهما من الوعاظ وأصحاب النحل الذين نهضوا بتمرين اللغة العربية على كثير من المعانى الدقيقة موازنين بين معانيهم وبين ألفاظهم وما تحتاجه لتأثيرها على وجدان السامع والقارئ من حلاوة وعذوبة .

٧

الصنعة فى الكتابة الأموية

رأينا الكتابة فى العصر الأموى تعالج موضوعات علمية وتاريخية ، كما تعالج رسائل سياسية واجتماعية ودينية ، وليس بين أيدينا وثائق صحيحة تصور كيف كانوا يعالجون مسائل العلم والتاريخ ، وحقًا مر بنا أنه طُبع لعبيد بن شَرِيَّة كتابٌ فى أخبار اليمن كما طبع لوهب بن منبه كتابه التيجان فى ملوك حمير .

---

(١) انظر رسالتين متبادلتين بين الصحابيين : أبى الدرداء وسلمان الفارسى فى العقد الفريد ١٥٠/٣ .

ولكن الكتابين جميعاً مشكوك فى صحة نسبتهما إليهما . وربما كان أصح منهما وأونق ما احتفظ به الطبرى فى تاريخه الكبير . على أن من يرجع إلى ما رواه عن مؤرخى تلك الفترة يلاحظ أن الكتابة التاريخية كانت لا تزال فى أول نشأتها ، وأنها لم تتطور بالسرعة التى تطورت بها الرسائل السياسية والدينية .

ومن يقرأ ما أُثر من رسائل سياسية لهذا العصر يستطيع أن يلاحظ فى وضوح أنها كانت تجرى أول الأمر فى الصورة التى كانت تجرى فيها لعهد صدر الإسلام ، فكاتبها أو ممليها لا يتأنق فيها ولا يقصد إلى تفنن أو زخرف فنى خاص ، إنما يقصد إلى أداء غرضه فى عبارة جزلة مصقولة يغلب عليها الإيجاز .

غير أننا لا نكاد نتجاوز منتصف القرن الأول للهجرة ، حتى تتكامل الرغبات للعناية بتلك الرسائل عناية توفّر لها ضروباً من التجويد والجمال الفنى ، وكأنما لم تعد الغاية أن تؤدى أغراضها فحسب ، بل أضيف إلى ذلك غاية أخرى أن تروع القارئين والسامعين بتحبيرها وتنميقها ، وكأنها قطعة موسيقية أو لوحات تصويرية . ولم يقفوا بذلك عند ظاهرها ، فقد أخذوا ينوعون فى معانيها ويفرّعون ، ويطنبون صوراً مختلفة من الإطناب ، وسرعان ما نسمع أن عمرو بن نافع كاتب عبيد الله بن زياد والى العراق (٦٠–٦٤هـ) كان يطيل فى رسائله طولا شديداً[1] . وظاهرة الطول ظاهرة جديدة لم يكن يعرفها العرب فى أدبهم إذ كانوا يوجزون قبل عصر عبيد الله بن زياد فى شعرهم ونثرهم جميعاً ، أما منذ هذا العصر فقد استمرت ظاهرة الإيجاز فى الشعر ، بينما حلت محلها ظاهرة معاكسة فى النثر ، وهى ظاهرة لا شك فى أنها وليدة التطور العقلى الذى أصابه العرب ، فإذا هم يستطيعون أن يبسطوا آراءهم السياسية وأن يفصلوا فى معانيها ضروباً مختلفة من التفصيل .

وإذا مضينا إلى عصر الحجاج وأغفلنا النظر عن طول الرسائل السياسية وما يُطْوَى فيه من صنعة فى بسط التعبير ومدّه ونظرنا فى الصياغة والأسلوب

---

(١) تاريخ الطبرى ، القسم الثانى ص ٢٧٠ .

لاحظنا أن بعض هذه الرسائل كان يعتمد على السجع ، فكان الحجاج نفسه يسجع أحياناً كما كان يسجع بعض من يكاتبونه ، ومن خير ما يصور ذلك رسالتان احتفظ بهما الجاحظ فى بيانه ، وهما متبادلتان بينه وبين قَطَرِىّ بن الفُجاءة ، وقد بُنيتا على السجع الخالص[١] . وحقًّا نجد المختار الثقفى يسجع فى رسائله[٢] ، ولكنه كان يبدو شاذًّا بعض الشىء فى هذا الاتجاه ، أما فى عصر الحجاج فيظهر أن كثيراً من الكتّاب كان يبنى كتابته عليه ، ولعل مما يدل على ذلك أن نجد ابن الأشعث حين ثار على الحجاج وأعد جيشاً لحربه ، يقول لكاتبه ابن القِرِّيَّة: « إنى أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجعاً أعرفه فيه سوء فعاله وأبصره قبح سريرته » ويصدع ابن القرية بأمره ، ويرد عليه الحجاج برسالة مسجوعة أيضاً[٣] . وقد لا يسجع الكاتب ، ولكنه لا يزال يفكر فى طريقة يلفت بها القارئ والسامع ، فقد حدثنا الرواة أن يزيد بن المهلب فى أثناء بعض حروبه فكر أن يكتب إلى الحجاج كتاباً ، وكان يكتب له يحيى بن يَعْمر ، وهو عربى ومن أوائل من عُنوا بوضع قواعد العربية [٤] فلما أمره يزيد بالكتابة إلى الحجاج وأن يعلمه بما صنعوا فى الحرب كتب إليه هذه الرسالة القصيرة[٥] :

« إنا لقينا العدو ، فمنحنا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ، ولحقتْ طائفة برءوس الجبال وعرائر [٦] الأودية وأهْضام[٧] الغيطان ، وبِتْنَا بِعُرْعُرَة[٨] الجبل ، وبات العدو بحضيضه » .

ولما قرأ الحجاج الرسالة أعجب بها إعجاباً شديداً ، وأرسل إلى يحيى يطلبه على البريد ، فلما جاءه سأله : من أين لك هذه الفصاحة ؟ وهى فصاحة

---

(١) البيان والتبيين ٢/٣١٠ .
(٢) انظر الطبرى فى سنة ٦٦ هـ .
(٣) الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن) ص ٣٢٣ .
(٤) أخبار النحويين البصريين للسيرافى (طبعة كرنكو) ص ٢٢ .
(٥) البيان والتبيين ١/٣٧٧ .
(٦) عرائر الأودية : أسافلها .
(٧) أهضام الغيطان : مداخلها .
(٨) عرعرة الجبل : أعلاه .

كانت تعتمد على اللفظ الغريب . ونحن لا نُثْنى على الإغراب فى الألفاظ ولكنا نستدل من هذه الرسالة الموجزة على أن الكتَّاب فى عصر الحجاج كانوا لا يزالون يفكرون فى صَنْعة أساليبهم ، فتارة يعمدون فيها إلى السجع ، وتارة يعمدون فيها إلى الإغراب اللفظى . فالكاتب لا يفكر فى أداء معانيه فحسب بل يفكر فى تنميقها وتزيينها بضروب من الحلية ، كل حسب ذوقه ، وكان يحيى بن يعمر لغويًّا ، وكان ذوقه ذوق لغويين فعمد إلى ألفاظ غير مألوفة كى يروع الحجاج ويملك عليه لُبَّه ، ونفذ فعلا إلى ما أراده ، إذ كان الحجاج يميل أحياناً إلى التفاصح بالغريب ، على نحو ما مر بنا فى خطبته بالكوفة التى بدأها بأرجاز تزخر باللفظ الحوشىّ .

ولم يكن الحجاج يعمد إلى السجع فى كتبه ورسائله دائماً ، بل لعل ذلك إنما كان فى القلة وفى الحين بعد الحين ، أما الكثرة فتخلو من السجع . وليس معنى هذا أنه كان يتخلص من محاولة التأنق والتنميق ، فقد كان يسعى إلى تحقيق ذلك دائماً ، وكان يتخذ إليه الإغراب فى اللفظ حيناً ، وحيناً يتخذ ما سبق أن لاحظناه فى خطابته من الصور والاستعارات الطريفة ، ومن خير ما يصور ذلك عنده ما رواه الجاحظ فى خاتمة بيانه من أنه كتب إلى عبد الملك بهذه الرسالة[١] :

« أما بعد فإنا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصبْ أرضنا وابلٌ[٢] منذ كتبت أخبره عن سُقيا الله إيانا ، إلا ما بَلّ وجه الأرض من الطَّش والرَّش والرَّذاذ[٣] ، حتى دَقعت[٤] الأرض واقشعرَّت[٥] واغبرَّت[٦] ، وثارتْ فى نواحيها أعاصيرُ تذرو[٧] دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها[٨] وامتناعها . وأرضُنا أرضٌ سريعٌ تغيرها ، وشيكٌ تنكُّرها ، سيئٌ ظَنٌّ

---

(١) البيان والتبيين ٤ / ٩٩ .

(٢) وابل : مطر شديد .

(٣) الطش : المطر القليل : ونحوه الرش والرذاذ .

(٤) دقعت الأرض : أصبحت لا نبات فيها.

(٥) اقشعرت : تقبضت من الجدب .

(٦) اغبرت : من الغبار .

(٧) تذرو : تسفى وتحمل .

(٨) اعتزازها : امتناعها ، أولعله من العزاز وهى الأرض الصلبة .

أهلها عند قحوط المطر ، حتى أرسل الله بالقبول[١] يوم الجمعة ، فأثارتْ زِبْرِجاً[٢] متقطعاً متمصراً[٣] ، ثم أعقبته الشمال[٤] يوم السبت ، فطَحْطحتْ[٥] عنه جَهامه[٦] ، وألَّفَتْ متقطِّعه ، وجمعت متمصِّره ، حتى انتضد[٧] ، فاستوى ، وطما وطحا[٨] ، وكان[٩] جَوْنا[١٠] مُرْثَعِناً[١١] قريباً رواعده . ثم عادت عوائده بوابل منهمل منسجل[١٢] ، يردف[١٣] بعضه بعضاً ، كلما أردَف شؤبُوبٌ أردفته شآبيب[١٤] بشدة وقعه فى العراض[١٥] . وكتبت إلى أمير المؤمنين وهى ترمى بمثل قِطع القُطْن ، قد ملأ اليَباب[١٦] ، وسدَّ الشعاب[١٧] وسقى منها كلُّ ساق . فالحمد لله الذى أنزل غَيْثه ، ونشر رحمته من بعدما قَنطوا[١٨] وهو الولى الحميد . والسلام » .

وواضح أن هذه الرسالة ليست مسجوعة ، ولكنها مع ذلك قد أحكمت صنعتها ، سواء من حيث اختيار ألفاظها والذهاب بها مذهب الغريب المقبول ، أو من حيث دقتها فى تصوير الجدب ثم نزول الغيث ، وهو تصوير لاشك قد فكر فيه الحجاج طويلا ، قبل أن يحكمه ويضبط التشبيهات والاستعارات التى تمثله ، وكأنه شاعر يجمع أشتات خياله ، ليؤلف هذه اللوحة البديعة .

ولم تبلغ صنعة الرسائل هذا المبلغ من الإتقان عند الحجاج وحده ، فقد كان يشْركه فى ذلك معاصروه من الولاة والقواد وكتَّابهما ، بل من الخلفاء

---

(١) القبول : الريح الشرقية .
(٢) الزبرج : السحاب الرقيق الخفيف .
(٣) متمصراً : متقطعاً .
(٤) الشمال : الريح الشمالية .
(٥) طحطحت : فرقت وبددت .
(٦) الجهام : السحاب لا ماء فيه .
(٧) انتضد : تراكمت طبقاته بعضها فوق بعض .
(٨) طما : امتلأ وزخر ، وطحا : انبسط وملأ الجو .
(٩) كان هنا بمعنى صار .
(١٠) الجون : الأسود .
(١١) مرثعناً : مسترسلا سائلا .
(١٢) منسجل : منصب .
(١٣) يردف : يتبع .
(١٤) الشآبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر .
(١٥) العراض : جمع عرض بضم العين وهو الناحية .
(١٦) اليباب : الخالى الذى لا شىء فيه .
(١٧) الشعاب : المسالك والسبل .
(١٨) قنطوا : يئسوا .

أنفسهم ، فقد روى الجاحظ فى بيانه رسالتين متبادلتين بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد بن العاص حين ثار عليه ، وليستا مسجوعتين ، ولكن أثر الصنعة والتأنق باد عليهما[١] ، ومعنى ذلك كله أن الكتّاب أصبحوا منذ هذه الحقبة من العصر يتفننون فى رسائلهم ، ويحاولون جاهدين أن تلمع عليها أثارة من الجمال الفنى .

وإذا مضينا إلى أوائل القرن الثانى للهجرة وإلى عصر هشام بن عبد الملك (١٠٤–١٢٤هـ) وجدنا على رأس ديوانه مولى له يسمى سالماً[٢] ينهض بكتابة هذه الرسائل السياسية نهضة واسعة ، وكان يعرف اليونانية وترجم منها بعض رسائل لأرسطاطاليس[٣] ، وعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأوّل فى تاريخ العرب وأدبهم[٤] ، ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة[٥] ، غير أن هذه الرسائل لم تصلنا ، ولولا أن الطبرى احتفظ لنا برسالة كتبها عن هشام إلى خالد القسرى[٦] لم نكد نعرف شيئاً واضحاً عن فنه وبيانه ، ومن يرجع إليها يلاحظ أنه عُنى بأسلوبه عناية تشبه عناية الوعاظ من أمثال الحسن البصرى بأسلوبهم وما كانوا يوفرون له من الازدواج والترادف الصوتى ، وكان يتكئ على الحال اتكاء شديداً فى صياغته .

وليس تحت أيدينا من النصوص ما نستطيع به أن نحكم على مدى التأثير اليونانى فى كتابة سالم ، وإن كان يُظَنّ أن هذا التأثير كان عميقاً ، وقد تخرّج عليه عبد الحميد أنبه كتّاب العصر وأشهرهم ، وسنعرض له عما قليل . على أنه ينبغى أن نلاحظ هنا شيئاً مهمّاً ، وهو أن التأثير الأجنبى فى الكتابة العربية الفنية لم يدخل أول الأمر عن طريق الفرس وكاتبهم ابن المقفع ، مما جعل بعض المستشرقين يزعم أنهم هم الذين أعاروا العرب هذا الفن النثرى ، بل لقد دخل كما نرى الآن عن طريق سالم الذى كان يحذق اليونانية . ولعل فى ذلك ما يدل

---

(١) البيان والتبيين ٤/٨٧ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٦٢ .
(٣) الفهرست ص ١٧١ .
(٤) الفهرست ص ١٨٢ .
(٥) الفهرست ص ١٧١ .
(٦) الطبرى ، القسم الثانى ص ١٦٤٢ .

على ما نذهب إليه من أن الكتابة الرسميَّة الفنية عند العرب لم تأتهم من الخارج ، فقد نشأت فى حجورهم بحكم حياتهم الإسلامية والسياسية الجديدة ومشاكلها المختلفة ، فالأجانب لم يبتكروها لهم ، بل كل ما هنالك أنهم أسهموا معهم فيها ، وتأخر هذا الإسهام إلى أن ظهر سالم وأشباهه .

ولم تكن الرسائل السياسية وحدها هى التى يطَّرد لها النمو والازدهار ، بل شاركتها فى ذلك الرسائل الاجتماعية أو الشخصية ، لسبب بسيط ، وهو أن من كانوا يكتبونها كانوا يعيشون فى تلك الحقب التى أخذ البلغاء يهتمون فيها بتنميق أساليبهم وإيداعها ضروباً من البيان والفصاحة ، ونسوق مثلا لها رسالة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى رجل من إخوانه[1] :

« أما بعد فقد عاقنى الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك . ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبتنى جفاء عن غير ذنب ، فأطمعنى أولك فى إخائك وأيأسنى آخرك من وفائك ، فلا أنا فى اليوم مجمعٌ لك اطِّراحاً ، ولا أنا فى غد وانتظاره منك على ثقة . فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة فيك ، فأقمنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف . والسلام » .

والرسالة على قصرها يتضح فيها جهد كاتبها فى تحبيرها ، فقد بناها على الطباق والمقابلة بين المعانى والألفاظ ، والتوازن بين العبارات والكلمات الفصيحة ذات المخارج الحسنة ، وكان شاعراً بيِّناً وخطيباً لَسِناً ، فأضفى من لَسَنه وبيانه على رسالته .

وإذا تركنا الرسائل الاجتماعية الشخصية والسياسية الرسمية إلى الرسائل الدينية والجدلية وجدنا أصحابها هم أنفسهم أرباب البيان والبلاغة من الخطباء المفوهين أمثال الحسن البصرى وغيلان الدمشقى .

وكانت هذه الرسائل تستخدم الأسلوب المزدوج الذى يأخذ بأطراف من التصوير والطباق ، والذى سبق أن لاحظناه فى خطابة الحسن البصرى

---

(١) البيان والتبيين ٢/٨٤ – ٨٥ وزهر الآداب ١/٧٨ .

وأضرابه ، ونسوق مثالين منه ، أما أولهما فما كتب به الحسن إلى عمر بن عبد العزيز فى صفة الإمام العادل ، وهو يطرد على هذه الشاكلة[١] :

« اعلم ياأمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِوَام كلّ مائل وقَصْد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والإمام العَدْل ياأمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق بها ، الذى يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقُرّ[٢] . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدّخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعته كُرْهاً ، وربّته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تاره ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتمّ بشكايته . . »

وتحمل هذه القطعة من الرسالة كل الخصائص التى سبق أن تحدثنا عنها فى خطابة الحسن ، ففيها الازدواج والترادف الصوتى والتكرار ، وفيها التقابل والطباق والتشبيهات وغير ذلك من حُلى بيانية . وقد مضى الحسن يقتبس فيها من آى الذكر الحكيم ما يصور به فكره ويوشى به تعبيره . أما المثال الثانى فنسوقه من رسائل غَيْلان الدمشقى ، إذ يقول[٣] :

« إن التراجع فى المواعظ يوشك أن يُذهب يومها ويأتى يوم الصاخّة[٤] ، كل الخلق يومئذ مُصيخ[٥] ، يستمع ما يُقال له ويُقضى عليه (وخشَعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا هَمْساً). فاصمُتِ اليوم عما يُصمتك يومئذ ، وتعلَّمْ ذلك حتى تعلمه ، وابتغه حتى تجده ، وبادرْ قبل أن تفجأك دعوةُ

---

(١) العقد الفريد ١/٣٤ .

(٢) القر : البرد .

(٣) عيون الأخبار ٢/٢٤٥ .

(٤) يوم الصاخة : يوم القيامة .

(٥) مصيخ : مرهف أذنه وسمعه .

الموت ، فإنها عنيفة إلا بمن رحم الله . ويا رُبَّ متعبد لله بلسانه معاد له بفعله ، ذلول فى الانسياق إلى عذاب السَّعير فى أمنية أضغاث [١] أحلام يَعْبُرها بالأمانى والظنون ، فاعرفْ نفسك » .

وهذه القطعة بدورها ترينا مدى احتفال الوعاظ برسائلهم وما كانوا يؤدون فيها من ضروب الجمال الفنى ، ويقول صاحب الفهرست إن رسائله كانت فى ألفى ورقة [٢] . ولا نرتاب فى أن هذه الرسائل وما يماثلها من مواعظ الحسن البصرى وأضرابه هى التى استعار منها سالم وتلميذه عبد الحميد أسلوبهما الكتابى فى الرسائل السياسية ، فإننا نجدهما يكتبان من نفس النمط ونفس النموذج ، وهو النموذج الذى شاع طوال القرن الثانى بين الكتاب العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ ، ونقف قليلا لنتحدث عن عبد الحميد الكاتب فى إيجاز .

٨

عبد الحميد الكاتب وخصائصه الفنية

هو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب القرشى ، ويقول من كتبوا عنه إنه يرجع إلى أصول فارسية [٣] وإنه كان من أهل الأنبار وسكن الرقة [٤] ، وكان فى أول أمره يتنقل فى البلدان معلماً فى الكتاتيب [٥] ثم التحق بديوان الرسائل فى دمشق لعهد هشام بن عبد الملك ، حيث خرجه خَتَنه سالم مولى هشام ورئيس هذا الديوان [٦] . واتصل بمروان بن محمد وكتب له أيام كان

---

(١) أضغاث : أخلاط .
(٢) الفهرست ص ١٧١ .
(٣) المسالك والممالك للإصطخرى (طبعة ليدن) ص ١٤٥ .
(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية ١٢/٣٠٧ .
(٥) نفس المصدر ١/٣٠٧ والفهرست ١٧٠ .
(٦) وفيات الأعيان ١/٣٠٧ والوزراء والكتاب ص ٦٢ .

والياً ، فلما صارت إليه الخلافة أقامه على ديوانه ، فنهض بالعمل فيه خير نهوض .

ولما دارت الدوائر على مروان وانتصرت عليه الجيوش العباسية بقيادة أبي مسلم الخراساني في موقعة الزاب ظل مخلصاً له وفياً ، ففر معه إلى مصر حيث قُتلا في موقعة بوصير[١] . ويروى المسعودى أن مروان قال له حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجتُ أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بى ، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك يدعوانهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعنى حياتى صنعت ، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرَمى بعد وفاتى ، فقال له عبد الحميد : إن الذى أشرت به علىّ أنفع الأمرين بك وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر ، حتى يفتح الله أو أقتل معك ، وأنشد :

أسرُّ وفاء ثم أظهــر غــدْرَةً   فمن لى بِعُذْرٍ يوسع الناسَ ظاهرُه[٢]

وفى ابن خلكان رواية أخرى تزعم أن عبد الحميد اختفى بعد مقتل مروان فى الجزيرة ، فوقف عليه السفاح وعذّبه حتى مات [٣] ، ويروى الجهشيارى أنه اختفى عند ابن المقفع ففاجأهما الطلب ، وأُخذ عبد الحميد[٤] . والصحيح ما ذكرناه أولا من أنه قُتل فى بوصير مع مروان .

وعبد الحميد أبلغ كتّاب الدواوين فى العصر الأموى وأشهرهم ، وقد ضُربت ببلاغته الأمثال ، فقيل فُتحت الرسائل بعبد الحميد ، وخُتمت بابن العميد[٥] ، ويقول ابن النديم : «عنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهّل سبيل البلاغة فى الترسل»[٦] ويزعم المسعودى أنه أول من استخدم التحميدات

---

(١) وفيات الأعيان ٣٠٧/١ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الرجاء) ١٧٨/٣ والوزراء والكتاب ص ٧٩ وعيون الأخبار ٢٦/١ .

(٣) وفيات الأعيان وانظر الوزراء والكتاب ص ٧٩ .

(٤) الوزراء والكتاب ص ٨٠ .

(٥) اليتيمة للثعالبى (طبعة الصاوى) ١٣٧/٣ .

(٦) الفهرست ص ١٧٠ .

فى فصول الكتب[١] . والحق أنه القمة التى وصلت إليها الكتابة الفنية فى العصر الأموى ، إذ كان زعيم البلغاء فى عصره غير مدافع . وقد بقيت منثورات من رسائله تشهد بفصاحته ولَسَنه ومقدرته على التعبير والبيان مع الفخامة والطلاوة ، من ذلك رسالة وجهها إلى عُمَّال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج ، ورسالة ثانية يصف فيها رحلة صيد وقد تأثر فيها تأثراً شديداً بوصف شعراء الجاهلية للصيد وكلابه وجوارحه . ورسالة ثالثة تقدم بها إلى الكُتَّاب[٢] ، ضمنها وصايا مختلفة لهم ، وهى تدل على نمو طبقتهم وأنهم أصبحوا يؤلفون جماعة بارزة فى حياة الدولة ووظائفها وأعمالها المتنوعة . ونراه يستهلها بأن صناعتهم أشرف الصناعات ، إذ بهم ينتظم الملك وبتدبيرهم وسياستهم يستقيم الحكم ، وينصحهم أن يتحلوا بخلال الخير وخصال الفضل ، ويخوض فيما ينبغى أن يتقتنوه من صنوف المعرفة والثقافة ، يقول :

« فنافسوا معشر الكُتَّاب فى صنوف العلم والأدب ، وتفقَّهوا فى الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فإنها ثِقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخطَّ فإنه حِلْية كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيامَ العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعين على ما تسمون إليه بهممكم ، ولا يضعفنَّ نظركم فى الحساب فإنه قوام كُتَّاب الخراج منكم » .

وفى ذلك الدلالة البينة على أن الكاتب فى عصر عبد الحميد كان لا يستطيع أن يحسن وظيفة الكتابة إلا إذا ألم بالثقافة الإسلامية وثقافة العرب الأدبية من خطابة وغير خطابة ومن أيام وغير أيام ، وأخبار الأمم الأجنبية ومعارفها ، ولابد أن يعرف الحساب وأن يروى الأشعار ويقف على غريبها ومعانيها ، فيفيد منها كما أفاد عبد الحميد نفسه فى رسالة الصيد إذ نثر فيها كثيراً من معانى الشعر القديم . فالكتابة لم تعد عملا سهلا بسيطاً ، بل أصبحت عملا معقَّداً ، لابد فيه من إعداد ومن تثقف تام بالقرآن الكريم وأوامر الشريعة وبالأدب العربى

---

(١) مروج الذهب ٣/١٧٨ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٧٣ وما بعدها .

وكنوزه النثرية والشعرية والآداب الأجنبية . وليس هذا كل ما يلفتنا فى الرسالة ، فقد تحدث عبد الحميد طويلا عما ينبغى أن يأخذ به الكاتب نفسه فى سياسة الناس وتدبير شئونهم ، كما تحدث عما يمكن أن نسميه آداب اللياقة بالقياس إلى الخلفاء . والرسالة فى مجموعها تتصل مباشرة بما أثر من وصايا ملوك الفرس لكُتَّابهم ، مما رواه الجهشيارى فى مقدمة كتابه الوزراء والكتاب ، ولذلك كنا نظن ظنًّا أن عبد الحميد يتأثر فيها بتلك الوصايا ، ولعل هذا هو الذى جعل صاحب الصناعتين يزعم أنه « استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى ، فحوَّلها إلى اللسان العربى » [(١)] ونصّ الجاحظ فى بيانه على أنه ترجم بعض كتب من الفارسية[(٢)] ، ولابد أن تكون هذه الكتب متصلة بعمله من الكتابة الأدبية . وربما كان من أطرف ما نقرؤه فى رسالته إلى الكُتَّاب الآنفة الذكر أننا نراه يدعوهم إلى تأليف ما يشبه النقابة فى عصرنا ، فقد طلب إليهم أن يعطفوا على من يَنْبُو به الزمان منهم ، وأن يواسوه ، حتى يرجع إليه حاله ويثوب أمره . والرسالة بذلك دستور واسع للكُتَّاب يصور واجباتهم الخلقية والثقافية ، وعلى هَدْيها كُتبت فيما بعد كتب أدب الكاتب والكتّاب لابن قتيبة والصولى وغيرهما .

وربما كانت أهم رسالة سياسية وصلتنا عنه رسالته التى بعث بها عن مروان ابن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجَّهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى الذى ثار فى العراق وامتدت ثورته إلى الموصل عام ١٢٨ للهجرة ، وهى رسالة كبيرة ، وكأن عبد الحميد أراد بها أن يضع دستوراً لتنظيم قواد الدولة لجيوشهم من الوجهتين : المادية والحربية ، والرسالة تقع فى نحو أربعين صحيفة ، فهى أطول رسالة أثرت عن عصر بنى أمية ، إذ امتد فيها نفس عبد الحميد إلى كثرة واسعة من الصحف ، فصَّل فيها الحديث عن آداب القادة وتصريفهم للمسائل الحربية ، وأطال فى بيان ذلك ، حتى غدت

---

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى (طبعة الحلبى) ص ٦٩ .

(٢) البيان والتبيين ٣/٢٩ .

الرسالة أشبه ما تكون بكتاب مستقل .

وهذا الطول المسرف فى الرسالة جعل خصائص عبد الحميد فى فنه الكتابى تبدو واضحة تمام الوضوح ، إذ نرى الخاصة من خصائصه تنبسط تحت عين القارئ انبساطاً واسعاً .وقد قسمها ثلاثة أقسام كبيرة قسم يصور القائد وما ينبغى أن يكون عليه من آداب فى سلوكه مع نفسه ثم مع حاشيته ورؤساء جيشه ، وأثرُ الثقافة الفارسية وما عرف عن آداب الفرس فى الملك والسياسة بيّنٌ فى هذا القسم . أما القسم الثانى فخاص بسياسة القائد لجيشه وما ينبغى أن يتخذ فيه من شرطة وقضاة ورجال مال . وأما القسم الثالث فقد تحدث فيه عن التنظيم الداخلى للجيش وكيفية إعداده فى وحدات كل وحدة مائة ، وهو نفس النظام الحربى الذى كان متبعاً عند البيزنطيين ، مما جعل طه حسين يظن أن عبد الحميد يتأثر فى هذا النظام برسائل الحرب عند اليونان . وذهب يلتمس صلة عبد الحميد بالثقافة اليونانية فى تقسيم كلامه إلى فصول بحيث يؤدى كل فصل فكرة تامة . وهى خاصة فى رأيه من خصائص النثر اليونانى القديم ، وأيضاً فإنه وجده يستخدم الحال استخداماً مسرفاً ، على شاكلة استخدام اليونان له ، يقول : « وهو لا يقتصد فى استعمال الحال ، وإنما هو يعتمد عليها فى تحديد فكرته وتوضيحها وتقييدها وتجميل الكلام وإظهار الموسيقى »[1] .

وأغلب الظن أن عبد الحميد فى ذلك كله إنما كان يقلد أستاذه سالماً فى كتابته ، فصلة سالم باليونانية مقررة ، ومرّ بنا أنه كان يسرف فى استخدام الحال كما تشهد بذلك إحدى رسائله ، وقد أثرت عن ابنه عبد الله رسالة[2] تسرف أيضاً فى استخدام الحال وكأنها كانت لازمة من لوازم سالم ، وتأثر به فيها تلميذان له ، أحدهما من بيته وهو ابنه عبد الله وثانيهما من غير بيته وهو عبد الحميد. أما مسألة تنظيم الجيوش إلى وحدات كل وحدة مائة فلعل عبد الحميد عرفها كما عرفها معاصروه عن طريق ما كانت تتبعه الجيوش البيزنطية فى عصره

---

(١) من حديث الشعر والنثر لطه حسين (٢) الكامل للمبرد ص ٧٩٣ .
ص ٤٠ وما بعدها .

فى عصره من تنظيم حربى وكانت الحرب قائمة بينهم وبين العرب لايهدأ أوارها .

ونحن نقف فى منزلة وسطى بين طه حسين ومن كتبوا عن عبد الحميد من القدماء ، فقد أجمعوا على أنه كان فارسيًّا وأنه نقل عن الفرس بعض رسائل أدبية ، وإذاً فهو فى نثره يتأثر الفرس تأثراً مباشراً لا شك فيه ، أما تأثره باليونان فلعله جاءه عن طريق أستاذه سالم الذى كان يحذق اليونانية ، وهى تظهر عنده فى التزامه المنطق الدقيق فى تقسيم كلامه إلى أجزاء متميزة وفقر متناسقة ، لا يظهر فيها أى نُبوّ ، ولا يداخلها أدنى شىء من استطراد أو تشعث . وفى رأينا أن سالماً هو الذى اتبع ذلك أولا فى رسائله بحكم ثقافته اليونانية ، ثم حاكاه تلميذه ، كما حاكاه فى لازمة الحال وفى أسلوبه الموسيقى الذى يقوم على الازدواج والترادف الصوتى ، وهو أسلوب سبق إليه الوعاظ من أمثال غَيلان الدمشقى والحسن البصرى ، ونقله عنهم سالم فى كتاباته ، وجاراه تلميذه عبد الحميد فيه ، حتى أوفى به على غايته ، فبهر معاصريه ومن خلفوهم . وانظرْ إليه يقول فى مطلع هذه الرسالة السياسية الطويلة[1] :

« اعلم أن للحكمة مسالك تفضى مضايق أوائلها بمن أمها سالكاً ، وركب أخطارها قاصداً ، إلى سعة عاقبتها ، وأمن سَرْحها[2] ، وشرف عزها ، وأنها لا تُعار بسخف الخفّة ولاتنشأ بتفريط الغفلة . . واعلم أن احتواءك على ذلك وسبقك إليه بإخلاص تقوى الله فى جميع أمورك موثراً بها ، وإضمار طاعته منطوياً عليها ، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكراً له ، مرتبطاً فيه بحسن الحياطة له والذبِّ عنه من أن تدخلك منه سآمةُ ملال ، أو غفلة ضياع أو سِنَةُ نهاون ، أو جهالة معرفة ، فإن ذلك أحقُّ ما بُدئ به ونُظر فيه معتمداً عليه بالقوة والآلة والعُدَّة ، والانفراد به من الأصحاب والحامَّة ، فتمسكْ به لاجئاً إليه ، واعتمد عليه مؤثراً له ، والتجئْ إلى كنفه متحيزاً إليه ، فإنه أبلغ ما طُلب به رضا الله ، وأنجحه مسألة ، وأجزله ثواباً ، وأعوده نفعاً ، وأعمه صلاحاً » .

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى ١٠/١٩٥ وما بعدها .

(٢) السرح : المال السائم .

وواضح أن عبد الحميد يعتمد على خاصة الترادف الموسيقى ، فالفكرة تؤدَّى لا فى عبارة واحدة ، وإنما فى عبارتين أو عبارات ، حتى يكتسب الأسلوب ضرباً من التوقيع والتعادل الصوتى ، فإذا العبارات تتلاحق متوازنة متعادلة تعادلا موسيقيًّا رائعاً ، يُرضى الأذن والشعور . وهو أثناء ذلك يعتمد على الحال اعتماداً مسرفاً لا نعرفه عند الوعاظ ولا عند من سبقوهم وعاصروهم من الخطباء ، إنما نعرفه عند سالم وابنه عبد الله ثم عند صاحبنا ، وكأنها أصبحت لازمة من لوازم تلك المدرسة .

ويوشِّى عبد الحميد أسلوبه بحلية التصوير وما يدمج فيه من استعارات ، وبحلية الطباق والمقابلة ، بالضبط على نحو ما كان يصنع الحسن البصرى وغيلان الدمشقى وأضرابهما فى رسائلهم ومواعظهم ، ومن رسائله الطريفة التى تصور مهارته البيانية تصويراً دقيقاً رسالته الشخصية إلى أهله ، وهو منهزم مع مروان يعزِّيهم عن نفسه[١] :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكره والسرور ، وجعل فيها أقساما مختلفة بين أهلها ، فمن دَرَّت[٢] له بحلاوتها وساعده الحظُّ فيها سكن إليها ، ورضى بها ، وأقام عليها ، ومن قرصتْه بأظفارها ، وعضَّتْه بأنيابها ، وتوطَّأتْه بثِقْلها ، قَلاها[٣] نافراً عنها ، وذمَّها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً منها . وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من دَرِّها أفاويق[٤] استحليناها ثم شَمَسَتْ[٥] منا نافرة ، وأعرضت عنا متنكرة ، ورمحتنا[٦] مولِّية ، فملُح عذْبها ، وأمرَّ حلُوها ، وخشُن لينها ، ففرَّقتنا عن الأوطان ، وقطعتنا عن الإخوان . فدارُنا نازحة ، وطَيْرنا بارحة[٧] ، قد أخذت كل ما أعطتْ ، وتباعدت مثلما تقربت ، وأعقبت بالراحة نصباً[٨] ، وبالجذل[٩] همًّا ، وبالأمن خوفاً ،

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٧٢ .

(٢) درت : من الدر وهو اللبن .

(٣) قلاها : أبغضها .

(٤) أفاويق : ما يتجمع فى الضرع من اللبن الذى يحلب .

(٥) شمست : من شمس الفرس إذا منع ظهره

(٦) رمحتنا : من رمحه الفرس إذا رفسه .

(٧) الطير البارحة : التى تمر من اليمين إلى اليسار ، وكان العرب يتشاءمون بها .

(٨) نصباً : تعبا .

(٩) الجذل : السرور .

وبالعز ذلا ، وبالجِدَة [١] حاجة، والسَّراء ضرَّاء ، وبالحياة موتاً ، لاترحم من استرحمها ، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له ، منفيِّين عن الأولياء ، مقطوعين عن الأحياء » .

وخصائصُ عبد الحميد جميعها واضحة فى هذه الرسالة القصيرة ، ففيها لازمة الحال ، وفيها جودة التقسيم ودقة المنطق ، وفيها الطباق ومقابلاته والصور وألوانها وخاصة لون الاستعارة ، وفيها الازدواج والترادف الموسيقى الذى يتيح لعباراته فنوناً مختلفة من الإيقاعات والموازنات الصوتية . وبذلك كنت تقرؤه ، فيلذ عقلك لدقة معانيه ، ويلذ شعورك لجمال تصويره وجمال موسيقاه .

ونحن لا نقول كما قال السابقون إن الرسائل بُدئت بعبد الحميد ، فقد بَدأت منذ فاتحة العصر الإسلامى ، وقام عليها بلغاء كثيرون أتاحوا لها النماء وضروباً من الازدهار . ومن ثَمَّ كنّا نرفض أوليته فى الرسائل ديوانية وغير ديوانية ، ولكنا بعد ذلك نثبت له أنه كان القمة التى وصلت إليها نهضة الكتابة فى العصر الأموى ، لما صارت إليه عنده من هذا اليسر وتلك المرونة فى أداء المعانى التى كان يجتلبها من الأدب الفارسى والتى كان يعبر عنها تعبيراً منطقيًّا دقيقاً ، لا استطراد فيه ولا حشو ولا نبوّ بأى وجه من الوجوه ، وأيضاً لما أتاح لها من هذا الأسلوب التصويرى الموسيقى ، فإذا الكتابة عنده تروق العين والأذن كما تروق العقل والقلب . ومن غير شك هيأت لذلك كله عنده بيئات الوعاظ ، كما هيأ له أستاذه سالم ، ولكن ذلك لا يضيره ، فحسبه أنه كان يملك لغته ويصرّفها فى أداء معانيه كما يشاء ، كما كان يملك أسلوبه وينظِّمه تنظيما تصويريًّا وموسيقيًّا بديعاً ، مما جعله ينفذ بصنعة الرسائل إلى كل ما كان يريده أصحابها من تنويع فى معانيها على أساس من المنطق الدقيق وجمال فى أساليبها على أساس من التصوير الطريف والإيقاع الصوتى الأنيق .

---

(١) الجدة : الميسرة .